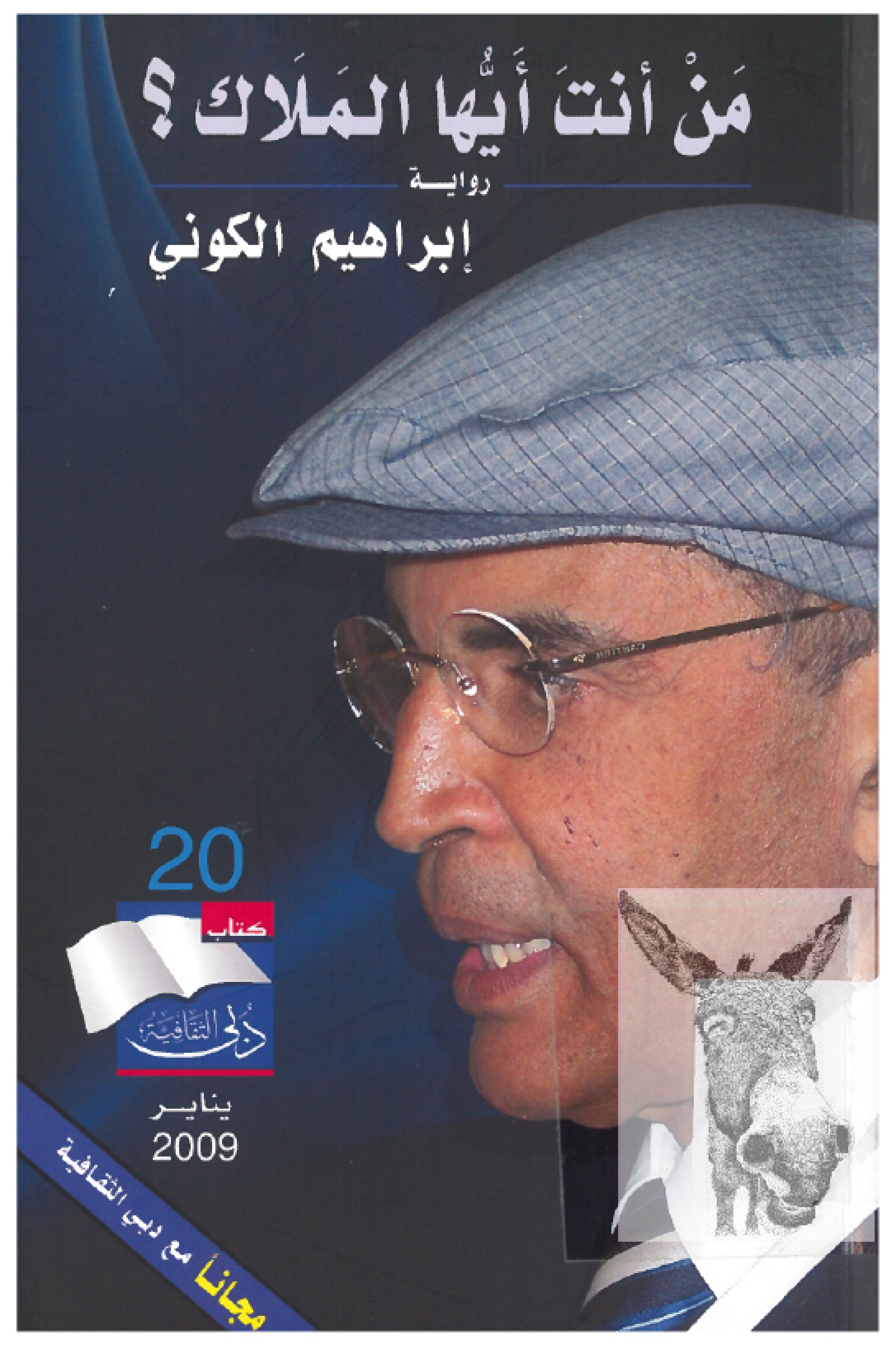
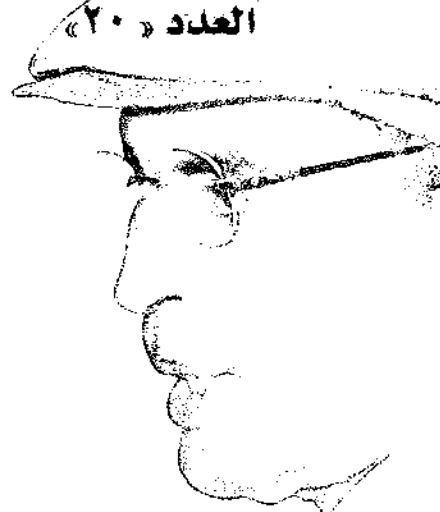

مَنْ أنتَ أيُّها المَلاك ؟
رواية
إبراهيم الكوني
20
كتاب
دبي الثقافية
يناير
2009
مجاناً مع دبي الثقافية

كتاب دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية

ويوزع مجاناً مع المجلة

العدد «٢٠»



إبراهيم الكوني

مَنْ أنتَ أيُّها المَلاك؟

روايـــة

الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٩

عناوين المجلة

• التحرير والإدارة ــ دبي :
الإمارات العربية المتحدة ـ دبي
منطقة الصفا ـ شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤ / ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ـ ٣٤٢٢٩٢٩/ ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/ ٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/ ٩٧١٢+

• الإعلانات والتسويق :
دبي ـ شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/ ٩٧١٤+

• التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/ ٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

أعزاءنا قراء دبي الثقافية، ها نحن ذا نتواصل من جديد معكم من خلال مشروعنا الثقافي «كل شهر كتاب»، مدعومين بأقلام كبار الكُتَّاب العرب الذين وصلوا إلى مرتبة العالمية، وفي مقدمتهم أستاذنا الجليل إبراهيم الكوني الذي يمثّل أسلوبه التجديدي في الرواية العربية مخرجاً لأدبنا من حالة التردي التي طال أمدها..

وعطاء أستاذنا الكبير يفوق عطاء أي روائي عربي آخر، ورؤيته للتجديد في الفكر العربي مرتبطة بخلق جوٍّ فلسفيٍّ للعمل الإبداعي لا تقتصر فيه الرواية على أن تكون عبارة عن شخصيات وأحداث متداخلة، بل إن بين سطور الأحداث ثَمَّةَ فلسفةً تغوص بالقارئ إلى أعماق الشخصيات والأحداث، محدثةً نَهَمَاً لديه بألاّ يتوقف عن القراءة حتى يتم الرواية عن آخرها..

كما أن الإسقاطات التي تتوارى بين مفردات الرواية، تقودنا إلى متاهات العالم السفلي للأمة، إن صح التعبير، ذلك العالم الذي لا يعبأ بالقوانين الموضوعة للعامة، والذي يمثّل شخوصه الدور

الوصائي حين يجعلون أنفسهم أصحاب مهمة تقتضي منهم القيام بأي شيء لضبط حياة العامة، وإخضاعها للطاعة، وحكم الدهماء بالأسلوب الأنسب بما يحفظ الأمن والنظام، ويضمن الولاء والطاعة!.. والرواية ممتعة جداً، ولا أظن أن أي قارئ سيبدأ في قراءتها، لا يتوقف بعد ذلك قبل أن يتمها في وقت قياسي!..

وللأستاذ الجليل إبراهيم الكوني باع طويل في عالم الكتابة، وهذا الإصدار الجديد يحتل الرقم سبعين تقريباً من إصداراته، ما يجعلنا نثمّن له هذا العطاء الثرّ، والإنتاج النوعي الغزير، والذي لا يضاهيه في المستوى الأدبي إلا الروائيون الكبار الذين يأتي الكوني في مقدمتهم..

ونحن في دار «الصدى» للصحافة إذ نُجِلُّ له هذا التقدير بموافقته على إتحافنا وإتحافكم بهذا الإصدار الجديد؛ فإننا نتمنّى من جميع قرائنا إبداء آرائهم في مستوى الطباعة والتجليد، ونوعية الورق؛ لأن مثل هذه الأعمال المتميزة يجب أن تحظى بكل العناية والرعاية، وهدفنا هو إثراء المكتبة العربية بالإصدارات الجديدة للأقلام المُبدعة والمُجدِّدة، وغايتنا رفد ساحة الثقافة العربية بما يقوّيها ويجعلها متفاعلةً مع الواقع الذي نعيشه، وقادرةً على مواجهة رياح العولمة والتغريب، بالإبداع والتميز.

الكاتب العالمي إبراهيم الكوني
وروايته الباذخة

بقلم: ناصر عراق

بهذه الرواية البديعة، يدخل كتاب «دبي الثقافية» منعطفاً جديداً؛ ليؤكد حضوره المدهش في الساحة الثقافية والإبداعية، الأمر الذي يرسخ صواب رؤيتنا في إصدار هذه السلسلة المجانية من كتاب «دبي الثقافية» كل شهر.

«من أنت أيها الملاك؟» هو الكتاب الرابع بعد كتب الأساتذة الكبار: أدونيس وحجازي والمقالح. وقد كان الإقبال على اقتناء مجلة «دبي الثقافية» كبيراً بصورة غير مسبوقة، بعد أن تيقن القارئ الكريم جديتنا في أننا سنمنحه كتاباً هدية كل شهر، وكما يقولون، فأرقام التوزيع لا تكذب، حيث تنفد فوراً الكميات التي تخصص لكل البلاد العربية فور صدور المجلة وهديتها.

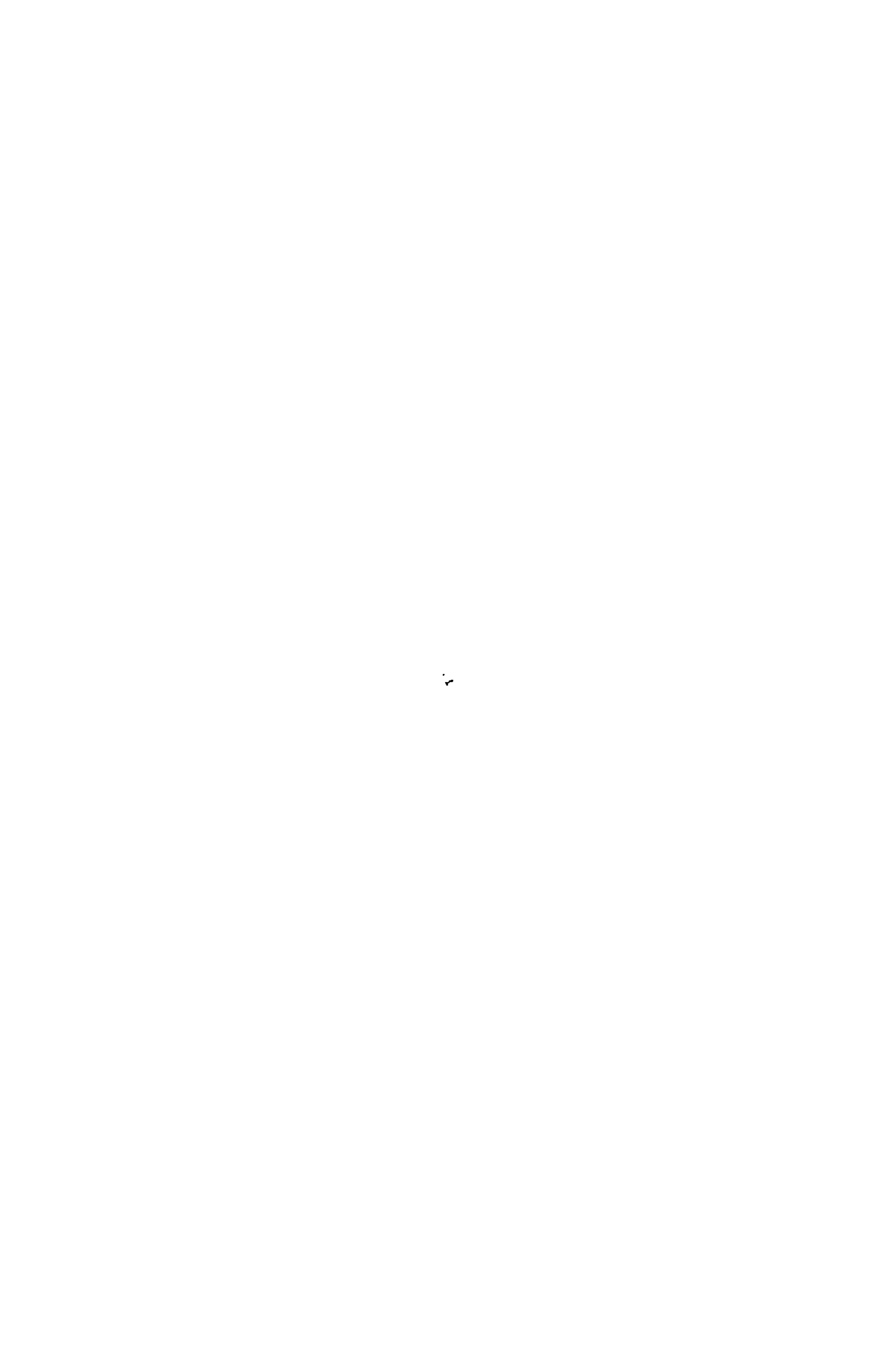
المثير أن هذا الإقبال الشديد للحصول على المجلة وكتابها الأنيق، يبرهن على أن القارئ العربي في أمسّ الحاجة إلى مطالعة كتاب جديد ذي طباعة فاخرة وورق ناصع وتدقيق لغوي متقن وإخراج مبهر، يبدعه شاعر أو ناقد أو مفكر أو روائي عربي يتسم

إنتاجه بالفرادة والابتكار.

«من أنت أيها الملاك؟» رواية جديدة للكاتب العالمي الأستاذ الفاضل إبراهيم الكوني صاحب الإنجاز المرموق في مجال الرواية.

وأظن أيها القارئ، أنك ستظل تطارد أبطال هذه الرواية منذ اللحظة الأولى للقراءة.

فتعالوا نطالع هذه الرواية البانخة!



إبراهيم الكوني

مَنْ أنتَ أيُّها المَلاك؟

رواية جديدة



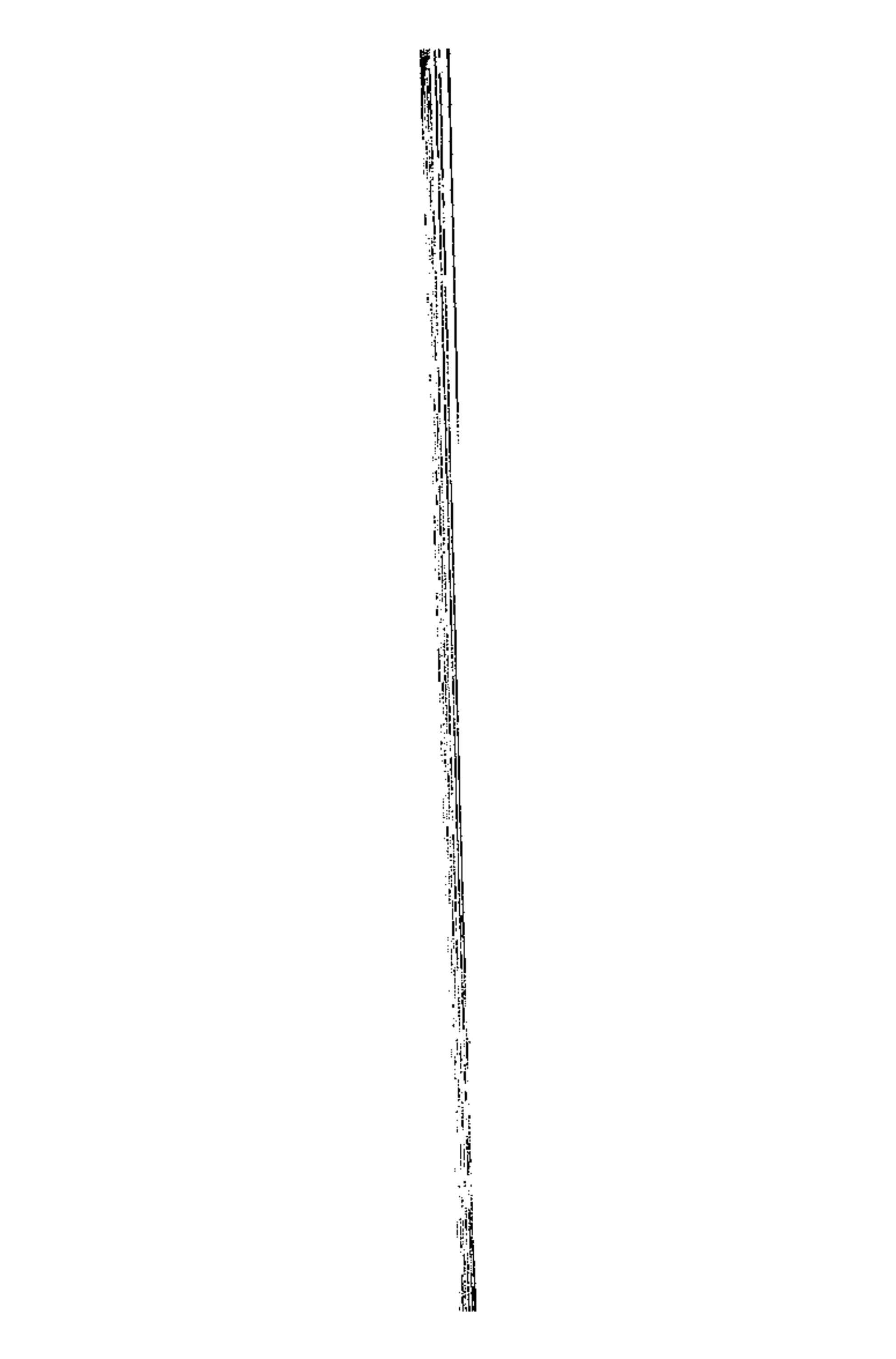
الإصدار «٢٠» يناير ٢٠٠٩

إلى مريم السّالك

«إنه لا يمتلك بيتاً، بل ويتباهى بأنه لا يمتلك بيتاً. يسرح في البريّة بالحرّيّة ذاتها التي تسرح بها الشمس في مدارها، فترتاد هذا الجانب من السماء مرّة، كما ترتاد ذاك الجانب من السماء مرّة أخرى».

بلوتارك

«محفل الحكماء السبعة»

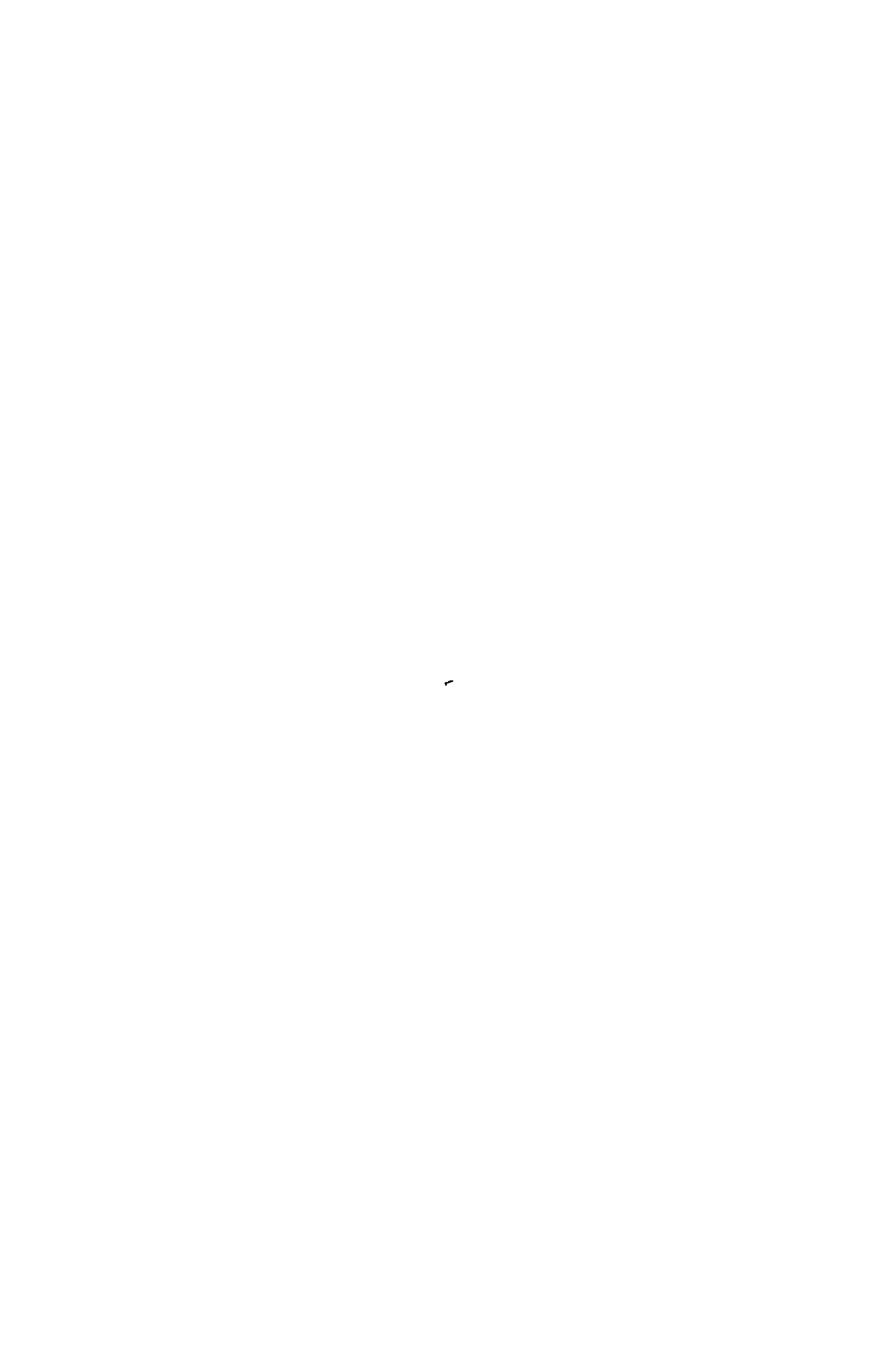


«مسافة عشرة أيّام أُخَر من أرض الجرمنت، تنتصب رابية ملح أخرى مطوّقة بالمياه والبشر. اسم هؤلاء هو «آترانتا»، لأنهم الأمّة الوحيدة، من بين كلّ الأمم المعروفة لدينا، لا تنتحل لأفرادها أسماءً منفردةً، بل تكتفي بإطلاق اسمٍ واحدٍ على كلّ أبنائها هو آترانتا».

هيرودوت

«التاريخ»

(184:3)



1

وضع «مسّي» شهادة الولادة أمام موظّف السّجلّ المدني وقال:

- يوجرتن!

حدّجه الموظّف باستفهام، فأضاف:

- يوجرتن! اسم المولود يوجرتن!

انحنى موظّف السّجلّ على القرطاس المتوّج بشعار «مستشفى الولادة»، قبل أن يستنكر:

- يوجرتن؟!

أجاب «مسّي» بغمغمة مبهمة، ويبدو أن موظّف السّجلّ المدني قرأ في الجواب استهتاراً بالأعراف، أو استهانة بهيبة الدولة، فما كان منه إلاّ أن سدّد إليه نظرة وعيد طويلة قبل أن يتنازل ليلقي في وجهه بسؤال:

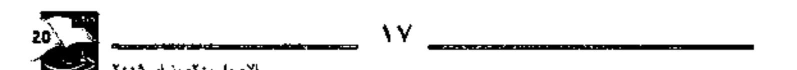
- ما معنى يوجرتن؟

برطم «مسّي» بلهجة كالاستكبار:

- اسم!

الجواب لم يقنع موظّف السّجلّ، لأن سيماء الوعيد في عينيه تحوّلت إيماء كالاشمئزاز، فأوضح «مسّي»:

- يوجرتن اسم ككلّ الأسماء!



تبادل مع الموظّف نظرة مزمومة. كان الموظّف مخوّلاً بتلقّي طلبات تسجيل المواليد الجدد المدعومة بالشهادات الرسمية من مستشفيات الولادة، للقيام بتدوين الوقائع في سجلّات السّجلّ المدني؛ وذلك لاستخراج الوثيقة الوحيدة التي لا يستطيع أيّ مخلوق من دونها أن يبرهن على وجوده على قيد الحياة.

ويبدو أن المدعو «مسّي» هذا أقبل ليدلّل على ميلاد وليده البكر، لأن الهيئة التي واجه بها موظّف السّجلّ، تبرهن على جهله المطبق بهذا الجنس من خدم الدولة الذين تحلّوا بخصال رهيبة في العلاقة مع المواطنين، أبسطها تلك الروح المكابرة التي ترى في جموع الخلق التي تقبل عليهم ضرباً من قطعان أنعام مدينةٍ لهم بأنفس كنز وهبه الربّ لعباده، وهو الحياة، لا لشيء إلاّ لأن الحظّوظ نصّبتهم على رقاب الخليقةِ بشهادات البراءة التي يمنحونها لمن شاؤوا فيجيزونه إلى الحياة، أو يحجبونها عمّن شاؤوا، فيجيزونه إلى العدم!

لهذا السّبب لم يكْتَب للمواطن «مسّي» أن يتخيّل، في وقفته في ذلك اليوم، مدى الخطر الذي حاق به، لا لخطيئة اقترفها في حقّ عُرْف هذا السّجلّ المجيد، أو في حقّ هيبة الدولة، أو في حقّ الناموس الأخلاقي السائد في المجتمع، ولكن لمجرّد الاعتزاز

بالنفس الذي استشعره هذا الموظّف بقرون استشعار لا تخفى عليها خافيةٌ [illegible] التي اعتادت أن ترى في الناس مجرّد بهـائـم في [illegible] العروض، بل وحتّى حشرات في أسوأ الفرو[illegible]

هذه [illegible] التي توحي لصاحب الحاجة بأنه شحّاذ يتسوّل معجزة لا [illegible] من يد كائن خرافي ينافس الربّ نفسَه في القدرة، بل [illegible] يفوق ربّ الأرباب نفسه، لأن ربّ الأرباب لم يبخل بالروح [illegible] نفخها في الوليد ليهبه الحياة، ولكنّ مارد السّجل يستطيع أن يحجب هذه الحياة التي نالها الوليد بالمجّان من الربّ [illegible] في المهد بمنع شهادة الميلاد عن المولود.

ولهذا لم يكن للمواطن «مسّي» أن [illegible] ى الصبر الذي تحلّى به صاحب السّجلّ في [illegible] ذلك اليوم قبل أن يصدر في النهاية حكمه الرهيب الذي [illegible] المواطن «مسّي» أيضاً أن يقدّره حقّ قدره عندما لفظ هذا الحكم في عبارة [illegible] ظنّها الشقيّ «مسّي» عابرة:

– لم أسمع باسم كهذا من قبل!

هنا أضاف الشقيّ «مسّي» خطيئة [illegible] خطاياه الأخرى عندما أباح لنفسه أن يقول بلهجة أشتمّ منها موظّف

السّجلّ نبرة استخفاف:

– الجهل بالشيء لا يعني عدم وجود الشيء!

سدّد إليه الرجل نظرة امتزج فيها الاستنكارُ بالاحتقار، ثمّ كَزَّ على أسنانه قبل أن يتساءل:

– ماذا تعني؟

– أعني الجهل بالاسم لا يعني عدم وجود الاسم!

أعقب «مسّي» العبارة بابتسامة بلهاء، ولكنّ صاحب السّجلّ لم يستجب. تفحّصه بفضول هذه المرّة، تفحصه بفضول سرعان ما انقلب دهشةً. تناول شهادة المستشفى بكلتا يديه. عاد يقرأ كأنّه لا يصدّق ما يقرأ. لوَّح بالقرطاس في الهواء غائباً. ثمّ انكبّ ليحرّر إيصالاً بالاستلام دفعه إلى «مسّي» قبل أن يشير إلى الأريكة الخشبية قائلاً:

– تستطيع أن تنتظر هناك لحظة!

استدار ليوليه ظهره. سار بين صفوف مناضد مغمورة بسجلاّت ضخمة يجلس إليها موظّفون جهمون يختلسون إليه نظرات مريبة تمتزج فيها السخرية بالاحتقار، بالوعيد الخفيّ.

انتظر في الركن طويلاً، ولكنّ موظّف السّجلّ لم يظهر.

2

في ذلك اليوم لم يحالف الحظّ المواطن «مسّي»، لم يحالفه الحظّ لا في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، ولا بعد أيّام. انتظر في ركن المكان الخانق من فرط الحرّ، الشحيح بالأهوية، السخيّ بالرطوبة، حتّى نهاية الدوام، ولكنّ موظّف السّجلّ لم يظهر؛ ففي اللحظة التي لاحظ فيها تأهّب بقيّة الموظّفين للخروج، وجد في نفسه الشجاعة كي يتقدّم من أحدهم ليستفهم منه عن مصير زميله الضائع. ولكنّ الموظّف رمقه بنظرةٍ ضيقٍ خاطفةٍ قبل أن يتنازل ليلفظ في وجهه عبارة كأنّه يجود عليه بحسنة:

– غداً!

ثمّ استدار لينصرف بعجلة مدهشة مستجيباً لهوس بقيّة الزملاء الذين تدافعوا نحو باب الخروج كأنّهم يفرّون من معتقل، وليس من رحاب عمل.

خرج يومها أيضاً ليعود في صباح اليوم التالي، ولكنّ موظّف الأمس ما لبث أن كشّر في وجهه بذات الكلِمة التي لفظها في وجهه بالأمس:

– غداً!

استمرّ يرجمه بهذه التعويذة أيّاماً قبل أن يتنازل عن

كبريائه يوماً ليستبدل بها عبارة أخرى تعمَّد أن يضمّنها نبرة قرأ فيها «مسّي» سخريةً:

– الأسبوع القادم!

نَفِدَ صبر المواطن «مسّي» يومها فتجاسر ليستفهم ببراءة السعداء الذين دلّلتهم الأقدار فقضت حوائجهم، ولم تضع مصائرهم (مع حوائجهم)، في قبضة زبانية أمثال سدنة السّجلّ المدني:

– هل لي بمقابلة رئيس الدائرة؟!

تبادل الموظّف مع أقرب الزملاء نظرة ذات معنى: مزيج من لؤم، ودهشة، وسخرية، واحتقار، وإيماءات كثيرة أخرى منكرة لم يجد لها المواطن «مسّي» اسماً. بعد تبادل النظرات انتقل المحفل إلى الهمس. تهامسوا زمناً وهم يختلسون نحوه في كلّ مرّة نظرات استنكار وقحة، إلى أن أعلن أحدهم بصوت مسموع:

– صاحب السيادة يريد أن يقابل رئيس الدائرة!

ساد صمت لحظات قبل أن ينفجر المكان بقهقهة جماعية كريهة. تضاحكوا كالرعاع في حانة قبل أن يخاطبه أحدُهم بلسان عصابة فرغت للتوّ من حياكة مكيدة:

– اعلم، أيّها السيّد، أنّنا في هذه الدائرة كلّنا رؤساء!

وقف المواطن «مسّي» وراء الحاجز كالأبله. تنقَّل ببصره بينهم في ذهول. تمتم لنفسه أصواتاً مبهمة، ولكنّه أخفق في إجبار عضلة اللسان على ترجمة الأصوات في عبارة. فسّر شلل العضلة في عجبه، ربّما لأنه لم يعتد أن يستثير استخفاف الأغيار بلا سبب بيّن، أو، بالأصح، اعتاد أن يتسامح إزاء سخرية الآخرين عندما يتخيّل وجود السّبب حتّى لو كان هذا السّبب موهوماً. اعتاد أن يتحلّى بما يسمّيه العقلاء حِلْماً كلّما وجد نفسه ضحية سوء الفهم. ولكن ما حدث تحت سقف بنيان السّجل المدني حتّى الآن، لا يمكن أن يندرج تحت خانة «سوء الفهم» حتّى لو افترض حسن النية. ومسلك هذا الجمع اليوم، وكذلك في كلّ الأيّام الماضية، دلَّل له بما لا يدع مجالاً للشّك، أنه ليس جاهلاً بنواميس هذه المدينة (التي ظنّ يوماً أنه استوعب لا قوانينها أو عادات أهلها فحسب، ولكنّه فكّ أيضاً طلسمات أسرارها)، ولكنّه اكتشف لأوّل مرّة كم هو غبيّ في يقينه هذا، بل والأسوأ من كلّ هذا، اكتشف كم هو مضحك أيضاً!

كان على الأقدار أن تمدّ في عمر الشقيّ «مسّي»، كي تلقّنه الدرس الآخر الذي يقول إنّ الأسوأ من أن تكون في نظر الأغيار أضحوكة، هو أن تستحقّ في نظر الأغيار الشفقة!



3

موظّف السّجلّ المدني اختفى.

قيل إنه غاب في إجازة طويلة. قيل أيضاً إن قراراً صدر بحقّه يقضي بنقله إلى دائرة أخرى من دوائر السّجلّ المجيد تقع في مكان آخر مجهول العنوان، لعدم وجود علاقة له مباشرة مع الجمهور.

خلال هذا الزمن لم يتوقّف عن مراجعة قسم المواليد يوماً واحداً. كان يقف في طوابير الجمهور ساعات كاملة، وعندما يأتي دوره يستنزل الموظّف المختصّ على وجهه قناعاً آخر، ليأمره بالانتظار على الأريكة الخشبية في الركن، فلا يجد مفراً من الاستجابة. يستجيب، لأنه جرّب الاحتجاج مراراً، ولكن بلا جدوى؛ ذلك أن محفل تلك المخلوقات الكئيبة التي أشبعته سخرية في بداية عهده بالسّجلّ، ما لبثت أن استبدلت أسلحتها. كفّ المحفل عن همسات الخبث. كفّ عن تبادل النظرات المشبوهة. كفّ عن الإيماءات التي توحي بتدبير مؤامرة. كفّ عن كلّ هذا ليتسلّح بتجاهل وجوده نهائياً. وهو قصاص لم يفهم له الشقيّ «مسّي» سبباً، تماماً كما لم يفهم سبب استنكار الموظّف (الذي توارى عن الأنظار) للاسم المدوّن في قرطاس الولادة الممهور بتوقيع كبير أطباء مستشفى

الولادة. لم يفهم، كما لم يفهم أيضاً سرّ اختفاء الرجل طوال هذا الأمد. وكانت نتيجة هذه المعاملة أن ملّ: ملّ التجاهل كما لم يملّ السخرية، كما لم يملّ الخبث، كما لم يملّ المكيدة. ملّ فقرّر مرّة أن يضع حدّاً لهذا العدوان. بلى، بلى. التجاهل جُورٌ أقسى من العدوان. التجاهل حكم جائر بالإعدام. وهو حكم إعدام لم يستصدره المحفل بحقّه وحده، ولكنّه أعطى لنفسه الحقّ بأن يستصدره بحقّ مخلوق بريء لا حول له ولا قوة. حكم إعدام استصدره بحقّ الرضيع قبل أن يستصدره في حقّه هو. ولهذا قرّر في لحظة ضعف أن يعلن عن نفسه، أن يعلن عن وجوده ووجود مخلوق اسمه «يوجرتن». قرّر أن يجاهر باحتجاج رآه من حقّه فتمرّد. تمرّد برفض الانتظار ساعةً واجه الموظّف الذي أمره بالانتظار على الرسم المعتاد. حدّق عضو المحفل في عينيه طويلاً، ثمّ أعاد الأمر بالانتظار. تطلّع إلى الرجل، مال بجسده إلى الأمام. قال بصوت نمَّ عن نفاد الصبر:

– إذا كنت أستطيع أن أنتظر إلى الأبد في هذا المعتقل، فهل تظنّ أن بوسع الإنسان الذي ينتظر ميلاده الثاني أن ينتظر أكثر ممّا انتظر؟

تطلّع إليه عضو المحفل بفضول قبل أن يحشرج بصوت مكتوم:

– ميلاده الثاني؟ ماذا تعني بالميلاد الثاني؟!

تمتم في وجهه بصوت مكتوم أيضاً:

– شهادة الميلاد!

استنكر عضو المحفل:

– هل تعني شهادة الميلاد ميلاداً ثانياً في عُرفك؟

زأر:

– شهادة الميلاد لا تعني ميلاداً ثانياً في عرفي أنا، ولكنّها تعني ذلك في عرفكم أنتم!

عاد الرجل يستنكر:

– في عرفنا نحن؟

– بالطبع في عرفكم أنتم! أليس عرفكم هو الذي حرّم الاعتراف بالمخلوق البشري الذي لا يحمل اسماً؟

ابتسم الرجل فجأة. قال:

– أظنّ أن الناموس البشري هو الذي سَنَّ هذا العرف، لا نحن!

صاح «مسّي»:

– ألستم أنتم من يقف اليوم كهنة على ما تسمّيه الناموس البشري؟

مال نحوه الموظّف كأنّه ينوي أن يبوح له بسرّ. قال همساً:

– ما أنا إلاّ عبدٌ مأمور!

تراجع إلى الوراء قليلاً قبل أن يضيف:

– مثلك تماماً!

استنكر «مسّي»:

– مثلي تماماً؟ ألا تدري أنك تُصْدر حكماً بالموت في حقّ وريث بريء؟

تعجّب عضو المحفل:

– الوريث؟

صاح «مسّي»:

– بلى! الوريث! ليس وريثي وحدي، ولكنّه وريث البشرية التي تدّعي الوصاية على ناموسها!

تمتم الرجل بعد لحظة صمت:

– أمهلني قليلاً!

انسحب إلى الداخل. جادل زميلاً يجلس إلى منضدة مكتظة بالسّجلات المهيبة. عاد بعد لحظات. قال:

– لا مفرّ من الانتظار!

ركب «مسّي» رأسه:

– لن أنتظر بعد اليوم.

تأمّله الرجل ببرود، ثمّ مال نحوه ليهمس بنبرة وعيد:

– لا أظنّك تريدنا أن نلجأ إلى الإجراء المتّبع في مثل هذه الحال!

تساءل «مسّي» باستهتار:

– هل تتوعّدني باستدعاء الشرطة؟

استنزل عضو المحفل على وجهه قناع المحفل من جديد؛ قناع تلك الفئة من الناس التي تحيط نفسها بالأسرار؛ لتضفي شرعيّةً على امتلاك السلطان على رقاب الناس. قال باستخفاف:

– نحن لا نستدعي الشرطة في مثل هذه الأحوال..

سكت لحظة، وأضاف ببرود:

– نحن نستدعي الإسعاف!

تعجّب «مسّي»:

– الإسعاف؟!

أجاب صاحب المحفل من وراء قناعه المستعار:

– نحن نستدعي إسعاف مستشفى الأمراض العقلية!

4

عقب الحادثة بأيّام تقدّم منه أحد السعاة ليلقي في أذنه بوصية:

– لا أنصحك بالاحتكام إلى الخصام!

حَدَجَه بنظرة شك، لأنه آمن بحقّه في أن يشك في كلّ شيء مَتَّ بصلة إلى هذا المكان، ولكنّه تريث قليلاً عندما تأمل سيماء الرجل فاستشعر طمأنينة. سأل:

– وهل أنا من اختار الخصام؟

كان الرجل نحيلاً، نحاسي البشرة، مُرَصَّع الفودين بالشيب، أشرم الشفة العليا، في عينيه يلمع إيماء حزن، هذا الإيماء هو الإشارة التي أحيت ثقة غامضة في قلب المواطن «مسّي». ولكنّ إيماء الحزن انقلب في اللحظة التالية قلقاً، ربّما بسبب الاحتراز من أن يُرَى وهو يحادث مواطناً استباح حَرَم المكان في سعيه لقضاء الحاجة.

تنحّى الساعي جانباً. تطلع إلى وجوه أعضاء المحفل المنهمكين في معاندة سجلاّتهم السريّة المهيبة، ثمّ لاصق الجدار قبل أن يخاطبه دون أن يلتفت إليه، كأنّه يحاور الفراغ، أو يحادث نفسه على طريقة أهل المسّ:

– لا أنصحك باللجوء إلى الصدام في هذه الدائرة إذا شئت



أن تُقْضَى لك حاجة!

ابتسم «مسّي» في ركنه الخالد باستخفاف، ولكنّه لم ينبس. قال الساعي:

– لا يقضي هؤلاء حاجتك إذا استلطفوك، ولكنّهم يقضون حاجتك إذا سئموك!

جعجع صدر «مسّي» بضحكة مكتومة. قال بنبرة سخرية:

– يدهشني حقّاً ألاّ يطفح بهم كيل السأم بعد كلّ هذا الزمن الذي قضيته إلى جوارهم!

تململ الساعي في وقفته الملاصقة للجدار. خطا نحو باب الخروج خطوتين. توقّف هناك لحظة. عاد على عقبيه. تمهّل عندما أدركه. قال مرفوع الرأس لئلاّ يلفت الانتباه:

– هذا يعني أن حضورك إلى جوارهم لم يسئمهم بعد!

عاد «مسّي» يستخفّ بضحكة أسى مغتصبة. قال بلهجة استهزاء أشدّ مرارة:

– هذا يعني أنهم لن يملّوني إلاّ يوم أموت!

– يروق لهم أحياناً أن يختاروا من بين الناس ضحايا طلباً للتسلية!

استنكر «مسّي»:

– طلباً للتسلية؟

تنحّى الساعي جانباً. دار حول أريكة الخشب حتّى أدرك الجدار. أسند ظهره إلى الحائط ليقول:

– لا يجب أن يدهشك قولي إذا قلت لك إنّ الملل هو آفة هذه الدائرة!

– الملل؟

– بلى. الملل داء ينهش قلب كلّ مخلوق تراه وراء هذا الحاجز، فلا يجد الأشقياء لمداواته ترياقاً سوى الإيقاع بالضحايا!

شيّع «مسّي» إلى الرجل نظرة دهشة، ولكنّ الساعي تسكّع في البلاط ذهاباً وإياباً قبل أن يقترب ليضيف:

– الغريب أن يسود هذا الوباء في دائرة تستخرج شهادات الميلاد للأحياء، ويغيب في الدائرة المجاورة المخوّلة باستخراج شهادات الوفاة!

توقّف. صلب يديه حول صدره الهزيل. سأل:

– ألا يقول هذا، لسيّدي الكريم، شيئاً؟!

تطلّع إليه «مسّي» بفضول، ولكنّ سيماء الرجل ظلّت صارمة. قال:

– بلى! هذه رسالة تقول إن الشقوة تبدأ بشهادة الميلاد، ولكنّ الخلاص في شهادة الوفاة!

سكت الساعي لحظات. طاف المكان ببصره. قال وهو يرنو بعيداً في عمق الفضاء المبهم الواقع خلف صفوف المناضد المفروشة بحشود الصحف المحشوة في بطون السّجلات الخرافية:

– وعلى رغم ذلك لا يجب أن نؤمن بجدوى شهادة الوفاة في مقابل شهادة الولادة.

انحنى بعدها فوق رأس «مسّي» فجأة ليهمس في أذنه:

– أردْتُ أن أقول إن من تراهم هناك ليسوا جميعاً أشباح شرّ كما قد يبدو!

تمتم «مسّي»:

– يدهشني أن تحسن بهم الظّنون بعد كلّ ما جرى لي على أيْديهم!

ابتسم الرجل بغموض. غمغم:

– لا يليق أن نتحسّر على ما جرى لنا، ولكنّ علينا أن نعدّ العدّة لمواجهة ما سيجري!

– وهل سيجري شيء أسوأ ممّا جرى؟

– ما سيجري دوماً أسوأ ممّا جرى، صدّقني!

سكت «مسّي». قال:

– لم يبق إلاّ أن يكتموا أنفاسي كما كتموا أنفاس خليفتي

في هذه الأرض!

– خطيئتك أنّك تعوِّل على الخليفة أكثر مما ينبغي!

– وهل في هذه الدنيا مخلوق واحد لا يعول على خليفته الذي سيرث بها الأرض من بعده؟

انحنى الرجل نحوه حتّى لفحه بأنفاسه. حدَّق في عينيه بفضول جنوني قبل أن يحشرج بصوت بحيح:

– أنا!

تعجَّب «مسّي»:

– أنت؟!

– بلى! وُلدتُ، ولكنيّ لم ألِد، ولا أنوي أن ألِدَ إلى الأبد. هل تدري لماذا؟

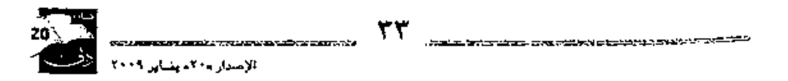
لم ينتظر جوابه. أضاف:

– لا أفعل ذلك ليقيني بأن في الأبناء يكمن فناء الآباء فحسب، ولكن لأني لا أريد أن أضيف شقوة كبرى إلى شقوة صغرى!

– شقوة كبرى إلى شقوة صغرى؟

– بلى! إذا كانت الدنيا شقوة صغرى فإن الذريّة هي شقوتنا الكبرى!

زفر في وجهه أنفاساً سخيّة، ثمّ أضاف:



– الشقوة الصغرى لا خيار لنا فيها، ولهذا أبحثُ لنفسي أن أطلق عليها لقب الصغرى. أما الأبناء فخيارنا نحن، ولهذا السّبب سمحت لنفسي أن أطلق عليها لقب الشقوة الكبرى!

كان «مسّي» يتطلّع إلى الرجل مشلولاً، مشدوداً إليه ببصره، كما تنشلُّ الفأرة بالتطلّع إلى حدقة الحيّة.

أخيراً تنحّى الرجل. انتصب فوق رأسه ليلقي له بالحُجَّة:

– والبرهان هو أنت!

احتجَّ «مسّي»:

– أنا؟!

أجاب الساعي ببرود:

– ألم تصبك العلّة منذ اليوم الذي رُزِقْتَ فيه بالأكذوبة التي تسمّيها خليفة؟!

– علّة؟

– أليس تردّدك على الدائرة كلّ هذا الزمن علّة، بل علّة العلل؟ ألا يصاحب تبديد أنفس ما وُهبنا، في دنيانا وهو الوقت، وسوسة هي علّة أخرى أقسى ألف مرّة من علّة تبديد الوقت، لأنها تبديد لكنْزٍ آخر أنفس حتّى من الوقت وهو الروح؟!

ساد سكون انتهكته جعجعة المواطنين المنهمكين في

محاورة الموظّفين، أو تبادل عبارات الشكوى فيما بينهم، أو مخاطبة أنفسهم بألفاظ تعبّر عن تذمّر تفلت منهم رغماً عنهم.

قال «مسّي»:

– لا تظنّ أنك أقنعتني على رغم ذلك!

– أنت واهم إذا كنت تظنّ أنّي أريد أن أُقْنع بهذه القناعة أحداً. كلّ ما أردت أن أقوله لك هو قدرة أخيار هؤلاء على أن يمدّوا لك يد العون!

قال «مسّي» بلهجة يأس:

– لا أرى ظلاً لأخيار في هذا المحفل.

– تخطئ! قد نقابل أخياراً لينجدونا حتّى في محافل الأبالسة!

قال «مسّي» بنغمة استخفاف:

– وهل في الدنيا محفل أبالسة أسوأ من هذا المحفل؟

– في محفل الأبالسة لا يقضي الأبالسة حاجة مخلوقٍ سئموه!

– وماذا عليّ أن أفعل كي يملّني أعضاء المحفل أكثر ممّا ملّوني؟!

تسكّع الرجل قليلاً. عاد على عقبيه، استدار ليوليه

ظهره. قال:

– أريد أن ألفت انتباه السيّد الكريم إلى أمرٍ هام: لا وساطة تجدي في هذا المكان!

ابتسم «مسّي». سأل فجأة:

– ألا يجدي شراء الذمّة؟

أجاب الساعي بيقين:

– ولا ذمّة هنا تُشترى!

– خارج هذا المكان كلّ الذمم تباع وتُشترى!

عاد الرجل يؤكد بلهجة اليقين:

– أوصيك ألاّ تعوّل هنا على شراء الذمّة!

– عجيب حقّاً أن أسمع هذا في وطنٍ لم يبقَ فيه شيء لم يخضع لناموس الصفقة!

قال الساعي منتصباً برقبته النحاسية النحيلة باستكبار:

– لا يعدم وجود أسباب لغياب شبح الصفقة في هذا المكان.

– أسباب؟

أجاب الساعي وهو يتطلّع إلى الظّلمات التي تلي فضاء ينتشر في رحابه أعضاء المحفل:

– تلك المخلوقات التي تتبدّى أشباحاً أو أبالسة لا فرق،

يحسبون أنفسهم سدنة استودعتهم الآلهة وصايا خفيّة لا يعلم سرّها سواهم!

استنكر «مسّي» بحماس مباغت:

– هل تحدّثت عن وجود وصايا خفيّة؟

سكت الساعي لحظات. أجاب:

– الأسماء!

هتف «مسّي» في ظهره:

– الأسماء؟

لم يجب الساعي، فأضاف «مسّي»:

– هل تعني أسماء المواليد؟

ظلّ الرجل ينتصب أمامه مثل صنم مولياً له قفاه. أجاب:

– لا يعتمد أعضاء المحفل أسماءً لم تَرِدْ في القائمة!

سكت «مسّي». تسكّع الرجل. خطا نحو باب الخروج. وقف هناك لحظات يتطلّع إلى الجادّة المزحومة بالسابلة. عاد على عقبيه. جاوره ليقول دون أن يلتفت إليه:

– القائمة المنزّلة!

لاحقه «مسّي» مستنكراً:

– عن أيّ قائمة منزّلة تتحدّث؟

أجاب بلهجة كاللامبالاة:

– في تلك الدواليب تنام قائمة بالأسماء المنزّلة، قائمة بالأسماء السريّة، قائمة بالأسماء الربوبية كما يسمونها؛ فإذا لم يردْ فيها اسم الوليد المزمع تسجيله خضع ربّ الوليد للمساءلة!

اعترض المواطن «مسّي»:

– لم أسمع يوماً بوجود قائمة منزّلة في ربوع السّجلّ المدني!

– الجهل بالشيء لا يعني بطلان وجود الشيء!

استعجب «مسّي»:

– ولكنّي لم أخضع للمساءلة التي تتحدّث عنها أيضاً!

دهمت المكان زمرة مراجعين فجالت بينهما. هَمَّ بأن ينهض ليلاحق الرجل، ولكنّه تراجع. نهشه الفضول، ولكنّه آثر أن ينتظر. تابع الرجل وهو يتلقّى أمراً من أحد أعضاء المحفل. كان يتكئ بمرفقيه على الحاجز الخشبي الذي يفصل رجال الدائرة عن صفوف الجمهور ليستمع باهتمام. استمرّ حوارهما أمداً، خاله «مسّي» دهراً، بعد لحظات وجد نفسه يرتجف ويتعرّق. تزحزح الساعي عن الحاجز أخيراً. اتجه صوب باب الخروج، ولكنّ «مسّي» انتصب واقفاً ليستوقفه. أومأ له بالجلوس فاستجاب للإشارة. قال الرجل مجيباً عن استنكاره

كأنّ جدلهما لم ينقطع:

– المساءلة حلقة في سبيلٍ غالباً ما يطول، ونادراً ما يقصر!

سأل «مسّي» بلهفة:

– أَيُعْقل أن يكون للموظَف الذي اختفى بمستند المستشفى علاقة بالمساءلة التي تتحدّث عنها؟

دَبَّ الرجلِ في المكان ذهاباً وإياباً. عاد على عقبيه. أجاب دون أن يلتفت إليه كأنّه يحدّث نفسه:

– لا أدري. ما أدريه حقّاً هو أن أعضاء المحفل لايختفون من هذا المكان إلاّ إذا اقترفوا آثاماً!

– اقترفوا آثاماً؟

– إذا ارتكبوا أخطاء، كما تقولون في لغتكم. هنا يسمّون ارتكاب الأخطاء آثاماً لأن الخطأ قد يُغْفر، ولكنّ الإثم في معجم هذا المكان هو ما لا يُغتفر!

استولت الدهشة على «مسّي». تمتم:

– ولكنّه إذا كان قد ارتكب أخطاء، أو آثاماً كما تسمّيها، فقد ارتكبها في حقّي أنا لا في حقّ المحفل أو دائرة المحفل!

– هذا ما تظنّه أنت، ولكنّ سادة هذا المكان قد يظنّون شيئاً آخر!

تململ «مسّي» على أريكته الخشبية الأبديّة. تمتم:

– الحقّ، أنّي لا أفهم..

سأله الرجل فجأة وهو ينحني فوقه:

– ألم يحادثك المعني؟

– بلى!

– ماذا قال على سبيل المثال؟

– لقد استنكر الاسم، بل أخضعني لاستجواب غريب بشأن الاسم!

هلّل الساعي:

– أرأيت؟ لقد أخضعك لاستجواب لم يكن مخوّلاً به، وهو ما يعني في ناموس الدائرة أنه اغتصب حقّاً لم يملكه!

تعجّب «مسّي»:

– اغتصب حقّاً لم يملكه؟

استنتج الساعي:

– كنت أعرف أن هذا الغرّ سوف يرتكب بحقّ نفسه حماقة منذ رأيته أوّل مرّة. كان الأبله مكابراً على نحوٍ لا يطاق حتّى من العامّة، فكيف يُطاق من كهنة معبد!

– كهنة معبد؟!

حَدَجَهُ الساعي بنظرة شفقة لأوّل مرّة، ولكنّها كانت كافية

ليحسبها الشقيّ «مسّي» طعنة. قال الرجل:

- يحيّرني أن تلج أبواب دائرة السّجلّ المدني، وتجهل مع ذلك كلّ شيء بشأن السّجلّ المدني!

5

في أحد الأيّام انتبه «مسّي» فوجد إلى جواره، على الأريكة الخشبيّة الخالدة، قريناً له في مسيرة الانتظار، عرّف بنفسه فقال إن اسمه موسى.

في اليوم الأوّل لم يتبادلا كلمة واحدة. كان الرجل يختلس نحوه نظرات خفيّة طوال الوقت، ولكنّه لم يستجب لنظراته بسبب الغيبوبة؛ فقد قادته تجربته الطويلة مع الانتظار إلى المجهول دون أن يدري. استدرجته ديمومة الانتظار إلى دهليز أطلق عليه اسم الغيبوبة من باب الاستعارة. أدرك بهذه التجربة أن الشقوة ليست في أن نفشل، ولكن في أن ننتظر. أدرك أن القصاص ليس أن نيأس، ولكن أن ننتظر. أدرك أن البليّة ليس أن نهلك، ولكن أن ننتظر. والعلّة ليست في الخيبة (خيبة الطلب)، ولكن لاستحالة أن يستمرئ الإنسان الانتظار أبداً. بلى، بلى. الانتظار هو ما استعسر على الطبيعة الثانية المسماة في معجم الحكمة: العادة!

في الآونة الأخيرة استعان على هذا الغول بالغيبوبة. لا ينكر أنه روّض نفسه عليها طويلاً مستنجداً بوصايا أمّه الكبرى: الصحراء؛ لأن الحياة في ذلك الوطن المفقود ليست سوى انتظار طويل، بل انتظار أبدي لا يضع لأبديته نهاية إلاّ

النهاية الطبيعية التي هي الموت.

في الأيّام الأولى استغرقته الوسوسة عن مصير الإنسان بلا اسم، عن معنى أن يولد المخلوق فلا يكون له نصيب في الاسم، أن يولد الإنسان فيقف على باب الربّ يستجدي اسماً، يستجدي اسماً ظنّه حقّاً مكتسباً، حقّاً مكتسباً مثله مثل نسمة الهواء، أو جرعة الماء أو.. أو مثله مثل الجسد الذي يتقمّصه، أو مثله مثل الروح التي تحرّك هذا الجسد. ولكنّه يفاجأ بحاجب الربّ يعبس في وجهه ليقول له إنه لا يملك الحقّ في الاسم، لأن الأسماء بالحوزة قد نَفِدَت، فلا يملك إلاّ أن يرفع عقيرته بالاحتجاج الذي لا يعدم الحُجّة. يتساءل في البداية عن معنى هذه الأحجية؛ فيجيبه الحاجب قائلاً: إن الأسماء كنز نفيس، بل هي أنفس الكنوز على الإطلاق، بدليل أن من لا اسم له لا وجود له. ولهذا السّبب فهي كمٌّ محدودٌ مثلها مثل كلّ سلعة نادرة وليس هناك نصيب من أسماء لفئتين من الناس: فئة تقبل على الدنيا قبل الأوان، وفئة أخرى تقبل على الدنيا بعد الأوان.

هنا يحاجج؛ فيتساءل لماذا يُوهب أنفاساً تأتي به إلى الدنيا إذا كانت هذه الأنفاس تُنتزع منه بالمشيئة العليا قبل أن تبدأ الرحلة. يحتكم الحاجب إلى ساحة الأحاجي مرّة أخرى

فيجيب قائلاً إنَ هذا لا يحدث أيضاً عبثاً. يستفهم الوليد الشقيّ عن حقيقة الطلسم فيجيب الحاجب قائلاً: إن قدر هؤلاء التيه؛ لأن أهل الاغتراب وحدهم أحباب الربّ!

راق له أن يجوس في دهليزه دائماً في المرحلة التي أعقبت اختفاء عضو المحفل ولكنّها سبقت ظهور رسول المسعى. ولكنّه لم ينعم باللُّقية طويلاً. بل لم ينعم بها يوماً واحداً بعد ذلك الحوار الغامض؛ فقد اكتشف اختفاء الساعي في اليوم التالي للقاء. توارى الرجل عن الأنظار كما توارى سلفه عضو المحفل. حاول أن يستفهم عنه من أحد زملائه السعاة، إلاّ أن الرجل تجنّبه كأنّه يفرّ من موبوء بالطاعون أو الجذام. بعدها لاحظ كيف تجنّبه الكلّ في البنيان: السعاة وأعضاء المحفل، بل وحتّى أفراد الجمهور. تجاهلوه فلم يجد عزاءً غير العودة إلى الغيوب. غاب في دنياه فرأى هذه المرّة الرؤى! رأى الأشباح على رغم أنه لم يغمض عيناً، ولم تأخذه وَسْنَةٌ من نوم. لم يرَ الأشباح فحسب، ولكنّه صارع الغيلان. تحولت جلساته على أريكة الانتظار كابوساً مميتاً لو لم يهرع لنجدته في أحد الأيّام قرينه في الانتظار: موسى!

بعد مراسم التعارف وجد في نفسه الشجاعة كي يستفهم عن بليّة القرين، ليقينه بأن الإنسان في هذا البنيان لا يُلْفَظُ

على أريكة الانتظار إلاّ إذا اختاره المجهول لامتحانٍ مجهول.
تطلّع إليه الرجل ببسمة غامضة قبل أن يجيب:
– الاعتراض على الاسم!
تبادلا نظرة طويلة. قال «مسّي»:
– هذا يعني أن انتظارك سيطول!
عاد الرجل يبتسم في وجهه بمرح خفيّ قبل أن يتساءل:
– هل انتظرتِ طويلاً؟
تأمله «مسّي» طويلاً. قال أخيراً:
– انتظرت طويلاً جدّاً!
طأطأ بحزن قبل أن يضيف:
– انتظرت زمناً شبّ فيه الرضيع ولم يعد طفلاً!
اكتأب الرجل قليلاً، ولكنّ سيماء المرح عادت تغزو ملامح الوجه. سأل:
– هل هو اعتراض على الاسم أيضاً؟
تمتم «مسّي»:
– بل مصادرة للاسم!
انتصب بينهما صمت. تساءل موسى:
– هل هو اسم معيب؟
تعجّب «مسّي»:

– اسم معيب؟

– يقال إنهم يعترضون على كلّ اسم معيب!

ابتسم «مسّي»، قال بنبرة استخفاف:

– يوجرتن كان اسماً لبطل أبطال، ولم يكن يوماً اسماً معيباً!

مضى موسى يقرأ في وجهه بإمعان دون أن تفارق بسمة المرح شفتيه. قال:

– هل قلت إن الاسم كان لبطل أبطال؟

– بالطبع!

– ما معنى «يوجرتن»؟

– يوجرتن كلمة تعني «البطل الأكبر»!

– بأيّ لسان تعني هذه الكلمة هذا المعنى؟

شيّع إليه «مسّي» وجهاً مزموماً بالألم. قال:

– بلسان أسلافي!

سكت موسى، ولكنّه لم يتوقّف عن ملاحقة جليسه ببسمته المرحة. قال:

– إذا كان الكتبة قد اعترضوا على اسم مريم، فكيف لا تريدهم أن يعترضوا على اسم مثل «يوجرتن»؟

تردّد «مسّي» قبل أن يسأل:

– وما هو اعتراضهم على اسم كاسم مريم؟

التقط أنفاساً قبل أن يضيف:

– ما أعلمه أنهم لا يعترضون على الأسماء المنزَّلة!

تأمّله الجليس لحظات قبل أن يقول:

– هذا يعتمد على مفهومهم للتنزيل، لا مفهومنا للتنزيل!

– ماذا تعني؟

– أعني أنِ مفهومهم للتنزيل حرفيّ وليس مجازيّاً!

تطلّع إليه «مسّي» غائباً، ولكنّ موسى أوضح:

– التنزيل الذي يعنونه تنزيل من اللجنة، وليس من السماء!

– من اللجنة؟

– أجل. تنزيل من اللجنة العليا للأسماء!

حدَجَه «مسّي»، بدهشة، ثمّ ارتجّ بضحكة مكتومة، ابتلع ضحكته غصباً قبل أن يقول:

– أخبرني أحدهم بوجود قائمة للأسماء، قال إنها تحوي أسماء منزّلة؛ فظننت أنه يعني الأسماء الواردة في الكتب السماوية، ولكن آخر ما توقعت أن يعترضوا على اسم لأمّ نبيّ!

– الأسماء المنزّلة ليست معنيّة بأسماء الأنبياء، كما قيل لي؛ لأن الغاية من القائمة هي حماية الأجيال!

استنكر «مسّي»:

– حماية الأجيال؟!

شعَّت سيماء موسى ببسمته المرحة قبل أن يجيب:

– حماية الأجيال من التمجّس، أو التهوّد، أو التنصّر!

تمتم «مسّي» بلا إرادة:

– تمجّس، وتهوّد، وتنصّر.. عجباً!

تابعه موسى لحظات بسيمائه المرحة ثمّ قال:

– الحال مع اسم مريم تهمة أهون إذا قورنت بتهمة اسم «يوجرتن»!

– لماذا؟

– لأن حظوظ الأسماء الواردة في الكتب المقدّسة أهون من حظوظ أسماء المجوس!

استنكر «مسّي»:

– المجوس؟

أجاب موسى دون أن تفارق بسمة المرح شفتيه:

– أن نقول مجوساً أهون من أن نسمّي الأشياء بأسمائها فنقول عبدة أوثان!

عاد «مسّي» يستنكر:

– هل قلت «عبدة أوثان»؟

– كلّ مخلوق عاش قبل نزول الرسالة في نظرهم عابدٌ لوثن!

طأطأ «مسّي»، طأطأ طويلاً. تساءل غائباً:

– هل تعني بحظوظ الأسماء حظّ الأسماء في الفوز بالاعتماد؟

غابت سيماء المرح من وجه موسى قبل أن يجيب:

– كلاّ! بل حظّ الأسماء من القصاص!

6

من ظُلمات كابوس كلّ يوم خرج «مسّي»، اليوم بوحي. أيقظته من دنياه جلبة الموظّفين ساعة الخروج من العمل، فودّع قرين الانتظار موسى ليُيمّم صوب مستشفى الولادة. هناك طلب مقابلة رئيس الشؤون الإدارية، ولكنّ أمين سره حَدَجَه بنظرة شكّ قبل أن يستفهم عن سبب الطلب، فلم تنجده القريحة إلاّ بالقول:

– لأمرٍ هام!

حدّق فيه الداهية بنظرة استشعرها تنفُذُ إلى الصميم قبل أن يلقي له بحزمة أوراق قال إنّها قائمة بطلبات المقابلة، ثمّ أضاف مذكّراً:

– تستطيع تسجيل اسمك في القائمة، آملاً ألا تنسى ذكر ذلك «الأمر الهام» بالتفصيل!

تناول القائمة. كان عدد الأوراق سخيّاً إلى حدّ أهّل القائمة لأن تصير دفتراً أو حتّى كتاباً. أما الأسماء المدوّنة في طيّاتها، فإن حسابها سيعدّ بالآلاف لو وُجد مخلوق عاطل عن العمل ليخضعه لحسابٍ دقيق.

تناول «مسّي» القلم المخصص لتدوين الاسم، ولكنّه أحجم في آخر لحظة. سأل بعد تردّد:

– هل يمكن..

ولكنّ أمين السرّ قاطعه بحدّة:

– لا يمكن!

حَدَجَه بنظرة صارمة ليضيف:

– لا مجال في هذه الدائرة للجدل في أمرٍ يتعلّق باللوائح!

ثمّ عاد ينحني على أوراقٍ مكوّمة أمامه على المنضدة. أما المواطن «مِسّي» فزفر بعمق قبل أن يدوِّن اسمه في ذلك المجلّد الذي أطلق عليه ذلك الداهية اسم «القائمة». استدار ليبحث عن كرسي شاغر، ولكنّه فوجئ بجلّ المواطنين ينتظرون وقوفاً في الممرّ الطويل؛ على الكراسي استقرّت بعض العجائز وعدد من نسوة يحتضنّ أطفالاً لايكفّون عن البكاء.

تراجع بحثاً عن حيّز، ولكنّ الجدار المجاور لمنضدة أمين السرّ مغطّى كلّه بالمنتظرين. تراجع إلى الوراء. مشى عبر الممر مسافة طويلة قبل أن يجد شقّاً في الزحام ينفذ منه إلى الجدار. صدم في الحشر رجلاً فاستسمحه عذراً بإيماءة، ولكنّ الرجل ابتسم في وجهه بدل أن يكشّر في وجهه. ابتسم له أيضاً فتشجّع الرجل ليهمس في أذنه:

– تدهشني قدرتهم على الإيحاء!

تساءل «مسّي»:

– إيحاء؟!

– قدرتهم على الإيحاء بأنّهم سلالة من طينة أخرى لا تمت بصلة إلى سلالة البشر!

علّق «مسّي»:

– هم بالفعل سلالة أخرى لا تمت بصلة إلى سلالة البشر!

قال الرجل وهو لا يزال يبتسم في وجهه:

– كأنّ الربّ وحده هو الذي نصّبهم على رقابنا أوصياء!

لاذ «مسّي» بالصمت فأضاف الرجل:

– مواهبهم لا تُجارَى في الإيحاء بأنهم مؤتمنون على سرّ كفيل بزعزعة كيان الكون فيما لو افتضح أمره!

تمتم «مسّي»:

– صدقت! يجب أن نعترف بعبقريتهم في إخفاء حقيقتهم!

قال الرجل بعد لحظة صمت:

– بلهاء كثيرون يصدّقون الملهاة!

استفهم «مسّي» بلكنة لا تخلو من فضول:

– أيّة ملهاة؟

ولكنّ الرجل مضى كأنّه يحدّث نفسه:

– هل تصدّق كما يصدّق الكثيرون، أن هؤلاء الأبالسة مؤتمنون من قبل الربّ على سرّ الموت؟!

حدّق «مسّي» في وجهه بذهول فأوضح الرجل:

– من حقّك أن تتحفّظ، ولكن ثِقْ أني لست بجاسوسٍ ولا بمخبول!

تابعه «مسّي» صامتاً. قال أخيراً:

– أتفق معك أنهم جلاّدون!

تمتم الرجل:

– ونحن الضحايا!

ساد بينهما الصمت. في نهاية الممرّ حيث تجلس النسوة علا صراخ طفل. انتظر «مسّي» لحظات ثمّ قال:

– يبدو أن القائمة قصمت ظهرك!

تطلّع إليه الرجل بغموض. أشاح ببصره جانباً قبل أن يجيب:

– ألاصق هذا الجدار منذ شهور!

– منذ شهور؟

– ظهري نبتة في هذا الجدار!

تعجّب «مسّي»:

– هل مقابلة رئيس قسم الشؤون الإدارية عسير إلى هذا الحدّ؟

لم يجب الرجل عن السؤال. لاذ بالصمت لحظات ثمّ أضاف:

– كلّ أملي في الفريق الذي سييأس، أو الفريق الذي سيغادر!

– فريق ييأس وفريق يغادر؟

– لن تحظى بمقابلة الرئيس إذا لم تراهن على يأس ضعاف النفوس، أو إذا لم يهرع لنجدتك الموت!

حدّق «مسّي» في وجهه بدهشة. غمغم:

– الحقّ أني لا أفهم تماماً.

– إذا لم يقم اليأس بكنس الحشود التي تسبقك في القائمة، وإذا لم يكنس الموت من أمامك البقيّة الباقية، فلا تطمع في الفوز بالمقابلة!

على المكان تقاطر آخرون. من المكان انسحب كثيرون. تململ «مسّي» في وقفته. تساءل:

– أكاد أجزم أن وراء هذا الباب يتخبّأ ترياق الموت!

ضحك الرجل بمرارة، كتم ضحكته، عقد يديه وراء ظهره، عاد يحتمي بالجدار المشبع بالرطوبة والبرد شتاءً، والمشبع بالحرارة صيفاً. قال:

– الموت هو الذي يتخفّى وراء هذا الباب لا ترياق الموت!

سكت. أضاف:

– آمل ألاّ تنتظر خلاصاً من وراء هذا الباب!

اختنق المكان برائحة العرق وأنفاس المواطنين. تساءل الرجل فجأة:

– هل مسألتك أيضاً مسألة حياة أو موت؟

تمتم «مسّي» بروح التسليم:

– أجل!

– هل هو خطأ إملائي في تدوين الاسم في شهادة الولادة؟

– بل ضياع شهادة الولادة!

– أووه!

حَدَجَه «مسّي» قبل أن يستفهم:

– هل استخراج بدل الفاقد بليّة أسوأ في ظنّك؟

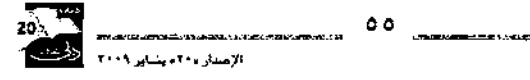
نفث الرجل نَفَساً، تنحّى عن الجدار، ثمّ عاد يحتمي بالجدار؛ فتبدّى لـ «مسّي» طفلاً يتسلّى. قال وهو يتطلع إلى السقف:

– لا أدري عمّا إذا كان الفقد أسوأ، ولكن ما أعلمه أن استخراج مستند جديد سوف يكلّفك عمراً حقيقيّاً!

هأهأ بضحكة ماكرة قبل أن يضيف:

– أعني سيكلّف وليدك، أو وليدتك، عمره كلّه!

تابعه «مسّي» غائباً، تابعه مشلولاً، تابعه كأنّه لايراه؛ ليقينه بأنه لم يستيقظ بعد من أضغاث أحلامه، لم يفق بعد من كابوسه؛ ذلك الكابوس الذي اعتاد أن يعانيه كلّ مَطْلَع شمس



في بنيان السّجلّ المدني، بل واعتاد أن يعانيه أينما حلّ منذ رزق بهذه البليّة التي يسميها البُلَهَاء وريثاً.

أنصت فسمع صوت الرجل:

– إذا ابتسم لك الحظّ يوماً وأفلحت في الدخول إلى ما وراء هذا الباب، فلا تحسب هذا الفوز نهاية مطاف، لأنه لن يكون سوى بداية المطاف؛ لأن الكاهن الذي يقبع خلف هذا الباب سيجد طريقة يعيدك بموجبها إلى نقطة الانطلاق، كأَنْ يطلب منك تحرير طلب، أو كتابة مذكرة إيضاح بالسّبب لتجد نفسك بعدها خارج الباب مرّة أخرى. وأنت، حسب ظنّي، تعلم ما معنى الخروج من ذلك الباب، لأن الدخول إليه سيكلّفك رهاناً عسيراً من مَلَك الحظوظ؛ فإن حدثت معجزة وابتسم لك (وهو لا يبتسم عادةً مرّتين إلاّ استجابةً لخلل في ناموس الكون)، ووجدتَ نفسك وراء الباب مدعوماً بالوثيقة المطلوبة، فلا يجب أن تحسب هذا التوفيق نهاية مطاف، لأن الكاهن سوف يستمهلك بدعوى دراسة الطلب كما تقضي اللوائح. وهي مهلة قد تستمر إلى الأبد. فإذا حدثت أعجوبة ثالثة (وهو أمر مستبعد في ناموس الحظوظ)، ووجدت نفسك في ربوع الحرم؛ فلا يجب أن تحسب أنّك كسبت الرهان، لأن خليفة ربّ الأرباب في الأرض سوف يبتسم في وجهك ليزفّ لك بشارة لا يجب أن

تصدّق أنها بشارة إذا قال لك إن طلبك فاز بالقبول؛ لأن متاهة أخرى تنتظرك بهذه المفاجأة السارة؛ ستجد نفسك بمقتضاها تقف على أبواب مراكز الشرطة لتستجدي من السلطات إفادة رسمية تشهد بالضياع. وأنت تعلم بالطبع ماذا يعني أن تنتزع مثل هذه الشهادة من أرباب تلك المراكز الشهيرة بسوء السمعة أوّلاً، وهوس رجالها بالتشدّق بالقوانين وطرح الأسئلة ثانياً، لا لشيء إلاّ ليقينهم بأن كلّ مواطن مذنب حتّى لو احتال وأثبت براءته. فإذا أطالت العناية الإلهية أيّامك، ووجدت في نفسك بقية من عافية؛ فإن تلك العصابة، بعد أن تشبعك تنكيلاً لن يقلّ بحال عن تنكيل هذه الدائرة، أو غير هذه الدائرة من الدوائر، سوف تعدك بالردّ بعد مخاطبة سلطات السّجلّ المدني. وبالطبع فإن سلطات السّجلّ المدني لن تردّ على الاستفسار قبل انقضاء أجيال! وإذا حدثت معجزة إضافية (وهو أمر بعيد الاحتمال كما تعلم)، فإن ردّ هذا الجهاز الرهيب عادةً لن يكون إلاّ سلباً!

سكت الرجل. فهيمن سكون شمل المكان كلّه. أمّا «مسّي» فأنصت طوال الوقت مطأطئاً. على شفتيه ارتسمت ظلال بسمة غريبة امتزج فيها الغموض بالاستهتار، بالاستهزاء. انسلّ بعدها من الصّف اللصيق بالحائط لينسحب من المكان، فيما

كان الرجل الشقيّ يقهقه وراءه بضحكة شرّ مكتومة!

7

حدّثوه عن عدم جدوى الذهاب بالولد إلى المدرسة من دون مستند ميلاد مستخرج من دائرة السّجلّ المدني، ولكنّه ذهب مدفوعاً بوسوسة قديمة راق له أن يطلق عليها اسماً غامضاً هو: «الواجب»!

أخذ الولد مبكّراً، وذهب به إلى المدرسة الابتدائية التي لا تبعد عن البيت سوى مسافة دقائق مشياً على الأقدام.

وقد اعتبر هذا القُرْبَ بسمة حظّ؛ لأنه يستطيع أن يتردّد إلى المدرسة دون أن يعيقه هذا الواجب عن تأدية الواجب الآخر: الانتظار في رحاب السّجلّ المدني!

في ساحة المدرسة، بدأ الأولاد يتجمهرون ويتلاحمون في صفوف طويلة تأهباً لتأدية التحية للعلم الذي رفرف في شعفة البنيان باسترخاء.

اتجه إلى الإدارة. اعترضه أحد السعاة مستفسراً عن سبب الزيارة. أومأ برأسه إلى الولد المشدود إلى يده قائلاً:

– التسجيل!

قاده الساعي إلى باب كُتبت على لافتته عبارة «الشؤون الإدارية» بخط فاحم مهيب. في الداخل وجد مخلوقاً مهيباً أيضاً ملتحماً بمنضدة خشبية. رمقه بعداء قبل أن

يقول بلهجة جفاء:

– تفضّل!

أومأ للولد كما فعل منذ قليل، ثمّ همهم:

– التسجيل!

كان رجلاً في العقد الثالث أو الرابع من العمر، يميل إلى البدانة، جاحظ العينين، مفلطح الشفتين، صارم السيماء. حدّق فيه بمقلتيه الجاحظتين الشبيهتين بحدقتي حرباء قبل أن يأمر:

– الوثيقة!

تردّد «مسّي» فأوضح الرجل بنفاد صبر:

– وثيقة الميلاد!

حدّق فيه الرجل بمقلتيه الفظيعتين مليّاً. دارت الحدقتان الجاحظتان في محجريهما، أو ربّما خارج محجريهما، كالحرباء تماماً، قبل أن يقول بلهجة سخرية:

– ماذا؟ هل قلتُ منكراً؟

لم يجد «مسّي» ما يفعله بيديه بسبب رَبْكته فوضعهما على المنضدة أمام الرجل. غمغم:

– الحقّ أنّي لم أتمكّن من استخراج مستند الولادة بعد!

حدَج الرجل يديه المستقرّتين على المنضدة باستنكار قبل

أن يتساءل:

– كم عمر الولد؟

– سبعة أعوام!

استنكر الرجل:

– يبلغ الولد سبعة أعوام، ولا تتمكن من استخراج مستند ولادته طوال هذا الزمن!

– الإجراءات كما تعلمون..

قاطعه الرجل بقسوة:

– الإجراءات، أم حطام الدنيا؟!

– لا أفهم..

– الكلّ في هذه البلاد يشتكي من عسر الإجراءات، في حين تكمن الأسباب في السباق وراء الكسب، والنّهم بدعوى الخوف من الفاقة!

تنحّى «مسّي» وتراجع خطوة إلى الوراء، في حين لاحقه الرجل:

– ما الذي يثبت لي أبوّتك لهذا المخلوق من دون شهادة ميلاد؟

أدخل «مسّي» يده في جيبه وأخرج وثيقة إثبات هويّة. قدم الوثيقة للرجل قائلاً:

– هذه بطاقة إثبات هويّتي إن كنت لا تصدّق!

تطلّع إليها الرجل بازدراء قبل أن يزمجر:

– هذه بطاقة تثبت هويتك أنت، ولكن ما الذي يثبت لي أنّك أب الولد من دون شهادة ميلاد الولد؟

زفر «مسّي» بيأس وهو يعيد الوثيقة إلى جيبه، فقال الرجل:

– لا يجب أن تؤاخذني، لأن البلد يعجّ باللُّقطاء!

تعجّب «مسّي»:

– اللقطاء؟!

– اللقطاء بالطبع، وإلاّ ماذا يمكن أن نسمّي هذه الأشباح التي بدأت تغزونا من حدُودنا الأربَعة، منذ أن اشتمّت رائحة الرخاء بدعوى انتماء مزعوم إلى سلالات هذا الوطن؟!

هتف «مسّي» مستنكراً:

– لا أخالك تشكّ في..

قاطعه الرجل:

– أشكّ بالطبع! من حقّي في وضع كهذا أن أشكّ كما يليق بكلّ عضو في دائرة رسمية، لأن الصدق عملة مفقودة خارج الوثيقة الرسمية!

طافت مقلتاه الأركان في سرعة عجيبة قبل أن يضيف

مفتعلاً لهجة اللّين:

– ماذا لو وجدت نفسك مكاني لتحتكم إلى شرع حسن النيّة، فتكتشف بعد فوات الأوان أن الرجل الذي منحته ثقتك، قد أدخل إلى مدرستك هذه ابناً بالتّبنّي، أو ولداً مشبوهاً حتّى لا نقول لقيطاً، لا ولد اللحم والدّم؟!

هبّ واقفاً فتبدّى أقصر قامة. دار حول المنضدة وتقدم نحوهما. انحنى على الولد ليسأل:

– ما اسمك يا بطل؟!

كان الولد يتسلّى بمتابعة حدقتي الرجل طوال الوقت دون أن ينصت لجعجعته. ولكنّه تراجع ليختبئ خلف أبيه فزعاً من الحدقتين. اضطر الأب إلى أن ينتهره كي يجيب بغمغمة مبهمة. انتصب الرجل ليوجّه سؤاله إلى الأب:

– ماذا قال؟

أجاب «مسّي» بهمهمة أخرى، ولكنّه غالب الحرج ببسالة قبل أن يقول بوضوح:

– يوجرتن!

بلع ريقه بعسر كي يعيد:

– اسمه يوجرتن!

خطا الرجل نحوه خطوة. انحنى نحوه بأذنه مغمض

العينين ليتساءل:

– ماذا؟ يوجر..

– يوجرتن!

اعتدل الرجل في وقفته. عقد يديه وراء ظهره. تطلّع إلى «مسّي» بارتياب قبل أن يسأل:

– ما معنى هذا الاسم؟

– الاسم يعني «بطل الأبطال» أو «كبير الأبطال»!

سكت الرجل طويلاً، ولكنّه لم يتوقّف عن التحديق في سيماء «مسّي». عاد يتساءل:

– بأية لغة؟

تردّد «مسّي» لحظة. أجاب أخيراً:

– بلغة أسلافي!

على شفتي الرجل المفلطحتين ارتسمت بسمة، ولكنّ «مسّي» لم يقرأ فيها إيماء الاستخفاف إلاّ بعد أن أصدر الرجل حكمه:

– هذا اسم ليس منّا، بلسان ليس لساننا، لإنسانٍ ليس من زماننا، ثمّ تريدني بعد كلّ هذا أن أصدّقك، أيها السيّد، لأكذّب الوثائق؟!

8

ما إن تجاورا على مقعد المنفى حتّى أعلن موسى:

– اليوم استلمت قرار الإيقاف عن العمل!

تعجّب «مسّي»:

– قرار الإيقاف عن العمل؟

تفحّص سيماء قرينه بالجوار ليضيف:

– سبقتكِ للانجراف في هذا السيل، ولكنّي لم أستلم قراراً بالإيقاف عن العمل!

قال موسى وهو يتظاهر بمراقبة زحام المواطنين أمام حاجز المحفل ليخفي استياءه:

– لم تستلم قراراً بالإيقاف عن العمل لسبب بسيط، وهو أنك لا تعمل مثلي في دائرة رسمية!

– آه!

– ولكنّ هذا ليس ضمانة أيضاً!

– ماذا تريد أن تقول؟

– أردت أن أقول إنّهم لن يعدموا البند القانوني الذي سيعتدون بموجبه عليك أيضاً!

– أووه!

سكتا لحظة. تبادلا نظرة. فرّا ببصرهما نحو المدى المؤدي

إلى الرحاب التي تتناثر في فضائها أعضاء المحفل. قال «مسّي»:

– مَنْ يتطلّع إلى تلك الأقنعة سيدهشه أن تخفي ما تخفيه!

تجاهل موسى حديث الأقنعة ليعود إلى حديث القانون الذي يبيح الإيقاف عن العمل:

– العمل بالمجال الخاص ليس حصانة أيضاً!

علّق «مسّي»:

– الإيقاف عن العمل يهون إذا قورن بالعزل من العمل!

– وما هو الإيقاف عن العمل إن لم يكن تمهيداً للعزل من العمل؟

استنكر «مسّي»:

– ولكنّ العزل من العمل ما هو إلاّ التمهيد للموت جوعاً!

ابتسم موسى. علّق:

– ما لم أتوقعه يوماً هو أن أفقد الحقّ في كسب القوت بعرق الجبين!

– واتتني الفرصة يوماً في أن انخرط في سلك العمل الرسمي، ولكنّي قاومت الإغواء وآثرت تجريب الحظّ في التجارة، ظنّاً منّي أن هذا الخيار سيكفل لي تلك الحرّية التي فقدتها منذ خرجت من الصحراء!

علّق موسى:

– كلّ قرار في سبيل الحرّية فوز حتّى لو تبدّى خسارة!

تظاهرا، كلاهما، بمتابعة ما يجري داخل القاعة. ولكنّ بصرهما، ظلّ معلّقاً بالأقنعة التي تنحني فوق السجلاّت باهتمام من ينهمك في فكّ الطلسم الكفيل بتحرير أجيال الخليقة من شبح الموت!

تكلّم «مسّي»:

– يدهشني أن يكون اسم «يوجرتن» سبباً في ورطة!

– السيادة لا تغفل الشاردة ولا الواردة!

– أيّ خطرٍ يمكن أن يشكّله الاسم حتّى لو كان اسم إبليس على ما تسمّيه سيادة؟

أجاب موسى بعد صمت:

– الاسم، في عرف السيادة، حياة!

ردّد «مسّي» بسخرية:

– حياة؟!

فأضاف موسى:

– وفي حال اسم خليفتك ترى السيادة في الاسم رِدّة!

– ردّة؟!

– مشروع ردّة!

سكت «مسّي». طاف وجوه القوم غائباً. سأل:

– وماذا ترى السيادة في حال الاسم الذي اخترته أنت لخليفتك في ظنك؟

أجاب موسى بعد لحظة تأمّل:

– أظنّ أن الاسم في حالتي أهون أمراً.

تململ في جلسته قبل أن يكمل:

– تعترض السيادة على اسم كهذا منعاً للبلبلة!

تعجّب «مسّي»:

– البلبلة؟

– في استعارة أسماء الأغراب، في نظر السيادة، يكمن جنس مستهجن من خلط الأوراق!

– ما الذي يمكن أن يعنيه خلط الأوراق هنا؟

سكت موسى؛ فأوضح بعد قليل:

– أسماء الأسلاف وصايا في عنق الأخلاف. والوصية في عرف الأجيال دائماً رسالة مُنَزَّلة!

استدار نحوه «مسّي»، حدّق في وجهه كأنّه يراه لأوّل مرّة. وعندما لانت سيماء القرين وطفحت بإيماء بسمته الآسرة، قال:

– ولكنّي لم أطلق اسم «يوجرتن» على خليفتي في هذه

الأرض إلاّ عملاً بوصايا الأجيال التي تتحدّث عنها!

واجهه موسى أيضاً. تطلّع إليه طويلاً قبل أن يقول:

– في حالك يجب أن تعمل على انتزاع الاعتراف بوجود هؤلاء الأسلاف أوّلاً، ثمّ تستطيع بعدها أن تسمح لنفسك بإطلاق أسمائهم على ذرّيتك!

– ولكنّ وجود أسلافي ليس في حاجة إلى اعتراف مثلهم مثل كلّ أسلاف هذه الدنيا!

حدّق موسى في عينيه طويلاً. ابتسم بمرح قبل أن يشكّك:

– البيِّنة!

هتف «مسّي» بصوت عالٍ استرعى انتباه كتبة المعبد:

– التاريخ! التاريخ هو البيّنة!

أطلق موسى ضحكةً ماكرةً. صاح أيضاً:

– يدهشني أن تؤمن بهذه العنقاء!

انفعل «مسّي»:

– يدهشني أن يتشدّق الأغيار بهذه العنقاء، ثمّ يحرِّموا على أمثالي الاستجارة برحابها!

قال موسى وهو يغالب الضحك:

– لأن العنقاء، أو ما تسمّيه أنت تاريخاً، خرافة مكتوبة بمداد السيادة!

استنفد «مسّي» جعبة الحجج، فاستعان على الانفعال برعدة زلزلت بدنه كلّه. ساعتها أبصر في مقلة الجليس الإيماء الذي كرهه؛ لأنه رأى فيه إهانة دائماً. أبصر في مقلة القرين الشفقة، وكي يهوّن الجليس على جليسه اخترع كذبة:

– ولكن يوجد الخلاص حتّى من تهمة الردّة!

«مسّي» رفض العزاء:

– من تهمة الردّة لا خلاص!

طأطأ أرضاً. سكت قليلاً قبل أن يتساءل بلهجة من يحدّث نفسه:

– حدّثني أحد العقلاء عن وجود بصيص الأمل في حال تقديم التماس يقضي بسحب الاسم لوروده في شهادة المستشفى كخطأ غير مقصود، ولكنّي أخشى أنّي لن أستطيع استبدال الاسم حتّى لو سمحت لوائح السّجلّ المدني!

9

التحق «مسّي» بالبنيان متأخراً، فوجد موسى ينتظره ببشارة.

استقبله ببسمة المرح ليقول:

– أحدهم سأل عنك منذ قليل!

لم يملك «مسّي» إلاّ أن يتعجّب:

– أحدهِم؟!

أومأ موسى برأسه نحو الكتبة المنكبّين على دفاترهم السمينة بوجوم الجلاّدين، ثمّ أجاب:

– هناك! في آخر منضدة من جهة اليمين، حيث يجلس الرجل الأكثر نحولاً، الأشيب الفودين!

تساءل «مسّي»:

– هل ذلك الرجل هو من سأل عنّي؟

تردّد موسى قبل أن يجيب:

– يخيّل لي!

– ما معنى «يخيّل لي» هذه؟

– في نظري كلّهم يتشابهون!

تابعه «مسّي» بذهول. حشرج:

– هل يعقل أن أنتظر هذه الفرصة إلى جوارك عمراً، وعندما

يأتي الفرج في غيابي لا تجد ما تقوله إلاّ أنك لا تذكر: لأنّهم كلّهم في نظرك يتشابهون؟!

قال موسى دون أن تفارق بسمة المرح (التي تبدّت لجليسه الآن بسمة بلهاء) شفتيه:

– ما كان يجب أن تتأخّر عن موعد الدوام!

– هذه هي المرّة الوحيدة التي أتأخّر فيها!

– كأنك لا تعلم أن القدر الذي يتربّص بنا لا ينتظر إلافرصة هذه المرّة الوحيدة!

– القدر؟

– هل تجهل أيضاً أن خصمنا الوحيد في هذه المبارزة هو القدر؟!

سكت «مسّي». أغمض عينيه. غزت سيماءه كآبة. أغمض عينيه فخاله جليسه يبكي. ولكنّه استعاد سكينته ليقول:

– لو علمتَ سبب تأخّري ما سخرتَ منّي!

– أنا لم أسخر منك، وإذا أبحتُ لنفسي أن أسخر منك، لا أفعل ذلك إلاّ لكي أسخر من نفسي!

عمّ سكون. قال «مسّي»:

– لقد دفنتُ للتوّ نصفي!

انتصب بينهما صمت أعمق. تزحزح موسى جانباً فجأة

ليواجه القرين. قال بفضول:

– ماذا يعني أن تدفن للتوّ نصفك؟

رنا «مسّي» إلى الفراغ حيث يحتشد جمع الكتبة. تمتم:

– امرأتي!

ردّد موسى خلفه:

– امرأتك؟! هل تقول إنّك فقدت امرأتك؟!

أومأ «مسّي» برأسه إيجاباً، فهيمن صمت. دام الصمت إلى أن تكلّم «مسّي»:

– ألن يكفي الموت عذراً في نظر خصمنا القدر؟!

يأتي الفرج في غيابي لا تجد ما تقوله إلاَ أنّك لا تذكر: لأنّهم كلّهم في نظرك يتشابهون؟!

قال موسى دون أن تفارق بسمة المرح (التي تبدّت لجليسه الآن بسمة بلهاء) شفتيه:

– ما كان يجب أن تتأخَر عن موعد الدوام!

– هذه هي المرّة الوحيدة التي أتأخّر فيها!

– كأنك لا تعلم أن القدر الذي يتربّص بنا لا ينتظر إلافرصة هذه المرّة الوحيدة!

– القدر؟

– هل تجهل أيضاً أن خصمنا الوحيد في هذه المبارزة هو القدر؟!

سكت «مسّي». أغمض عينيه. غزت سيماءه كآبة. أغمض عينيه فخاله جليسه يبكي. ولكنّه استعاد سكينته ليقول:

– لو علمتَ سبب تأخّري ما سخرتَ منّي!

– أنا لم أسخر منك، وإذا أبحتُ لنفسي أن أسخر منك، لا أفعل ذلك إلاّ لكي أسخر من نفسي!

عمّ سكون. قال «مسّي»:

– لقد دفنتُ للتوّ نصفي!

انتصب بينهما صمت أعمق. تزحزح موسى جانباً فجأة

ليواجه القرين. قال بفضول:

– ماذا يعني أن تدفن للتوّ نصفك؟

رنا «مسّي» إلى الفراغ حيث يحتشد جمع الكتبة. تمتم:

– امرأتي!

ردّد موسى خلفه:

– امرأتك؟! هل تقول إنّك فقدت امرأتك؟!

أومأ «مسّي» برأسه إيجاباً، فهيمن صمت. دام الصمت إلى أن تكلّم «مسّي»:

– ألن يكفي الموت عذراً في نظر خصمنا القدر؟!

10

في غيبوبة أحد الأيام وقف فوق رأسه الشبح فلم ينتبه. وكان على القرين (الأحدث عهداً بالانتظار، والأكثر حظّاً في الخلاص) أن يلكزه بمرفقه كي ينتبه لوجود الرجل الملفوف بالسواد من قمّة الرأس حتّى أخمص القدمين كأنّه أقبل ليقدّم التعازي لا أن يزفّ له بشرى. هَمَّ بأن يستفهم عمّا إذا كانت الدائرة قد اتخذت قرارها أخيراً بشأن الاسم، ولكنّ الشبح أومأ له أن يتبعه دون أن ينبس. دخل به باباً جانبيّاً يقع يمين المجلس، ثمّ سار به عبر ممرّ طويل مضاء بأنوار خافتة تنبعث من زوايا خفيّة في الجدار المشبع بالرطوبة. ولكنّ الممرّ انتهى إلى طريق مسدود، أو هذا ما تخيّله في البداية، قبل أن يبدأ دليله الكئيب في نزول دَرَجٍ أفضى إلى غياهب ممرّ آخر أكثر ظُلْمة ورطوبة. سار به طويلاً في ذلك القبو قبل أن ينحرف بهما السبيل يميناً، ليقفا أمام بابٍ موصد قرعه الدليل ثلاث مرّات بعناية توحي بترجمة لكلمة سرّ. انتظرا لحظات قبل أن ينفتح الباب عن سحنة مشبوهة ظلّت تتشبّث بظلفة الباب وتتفحصهما بارتياب قبل أن تتنحّى جانباً علامة الإذن بالدخول. ولم يتخيل «مسّي» أن يكون ذلك الباب الموحش فاصلاً بين عالمين، كأنّه البرزخ الذي يتحدّث عنه دراويش

الطريقة القادرية فيقولون إنه يقف حدّاً بين الحياة والموت، أو هو الأعراف التي يتحدّث عنها الكتاب الكريم فيقول إنها القنطرة التي على الروح أن تتطهّر في رحابها قبل أن تعبر إلى الفردوس؛ لأن الباب انفتح على ممرٍّ مضاء إضاءة كاشفة كأنّها عين الشمس في ظهيرة عارية من السحب، مفروشٍ ببساطٍ عجميّ وثير تغوص فيه القدمان عميقاً كأنّه منسوج من خزّ، يتسلّق الجدار من الجانبين أيضاً سجّاد فَخيم مجبول برسوم أنهارٍ زرقاء اللون، تخترق حقولاً مفروشة بضربٍ آخر من السجّاد: سجّاد أخضر من نباتات سخية منمنمة بزهور بنفسجيّة استهوته إلى حدٍّ أحسّ فيه بعطرها يغزو أنفه..

كان عليه أن يقطع في الممرّ مسافة أخرى كي يدرك أن الرائحة لم تكن إحساساً كاذباً: هواء الممرّ كان يعبق برائحة عطور حقيقية.

في النهاية توقّف الدليل أمام باب أنيق ثُبّتت على ظلفته لافتة مطوّقة بإطار ذهبي كُتبت عليها كلمة «الرئيس» حفراً في الخشب. قرع الدليل الباب، ثمّ تراجع إلى الوراء خطوتين. انتظر لحظات قبل أن يتقدّم من الباب في نيّة لطرقه من جديد. ولكنّ الباب انفتح في تلك اللحظة عن رجلٍ في العقد الخامس أو السادس من العمر، يرتدي نظّارة طبيّة

سميكة الزجاج، يحتضن حِمْلاً ثقيلاً من ملفّات ثخينة يحشو رأسه في أحدها، فيبدو غائباً إلى حدٍّ كاد يرتطم بالدليل الذي تراجع إلى الوراء ليفسح له السبيل متمتماً بتحية لم يكلّف الرجل عناء الردّ عليها.

في الداخل وقف به أمام مخلوق قصير، له سيماء قطّ، وجرم قزم. تبادل معه الدليل كلاماً لم يتبيّنه. انصرف بعدها الدليل من دون أن يلتفت إليه، في حين أشار له القزم بالجلوس دون أن ينبس.

جلس على أريكة جلدية فخمة وتطلّع إلى القزم. ولا يعرف لماذا بدأ يستعرض وجوه الناس الذين عرفهم وكانوا شديدي الشّبه بالحيوانات أو الزواحف أو حتّى الهوامّ والحشرات، إلى حدٍّ يقطع بانتماء هذه المخلوقات إلى تلك السلالات. انتابته قشعريرة عندما تذكّر رجلاً عرفه في الواحة كان شبهه الشديد بالحيّة سبباً في عزلته؛ لأن الناس اجتنبوه تطيُّراً. أمّا الفئات الأخرى الشبيهة بالأباعر، أو المعز، أو الغزلان، أو الجراد، فقد عرف منهم خلقاً كثيراً سواء في أثناء حياته في الصحراء، أو في أثناء حياته في الواحات. ولكن عليه أن يعترف أنّه لم يعرف مخلوقاً بوجه قطّ قبل اليوم!

في هذه اللحظة انتبه على نداء. كان القزم المجبول بملامح

القطط قد تقدّم منه ليقوده إلى باب مغلق. طرقه بقرعٍ خفيف قبل أن يفتح الباب. في الداخل وجد «مسّي» نفسه في مكان رحب، مضاء بإنارة خافتة جدّاً، تنتشر في أرجائه مقاعد وثيرة، في هوائه تفوح روائح من زهور مجهولة تختلف عن عطر الممرّ قليلاً. جال ببصره مغالباً العتمة ليتبيّن في الركن منضدة أنيقة، صغيرة الحجم، يقبع خلفها رجل أشيب الشعر، يميل إلى النحول، يحجب عينيه بنظّارة سوداء، ينكبّ على ملفّات تنتشر أمامه بسخاء فيبدو، لهذه العلّة، غائباً تماماً. ولكنّه لم يلحظ اللوحة إلاّ بعد أن اقترب من الرجل مستجيباً لدعوته إلى الجلوس: فهناك على الجدار، خلف موقع الرجل، استقرّت الصورة التي قُدِّر له ألاّ ينساها أبداً: ففي رقعة سماوية اللون، رُسمت على طول الجدار، رفرفت تلك المخلوقات الهشّة (أو هذا ما تخيّل لحظتها)، بأجنحة صغيرة، حاملةً أبداناً كأجسام العصافير، أو ربّما في حجم النحل، لتهيم في ذلك الفضاء الممهور بنتفٍ من عهنٍ ناصعٍ، منفوشٍ، شبيهٍ بقطع السّحب العقيمة، فتبدو في ذلك الفراغ أكثر هشاشة، وعجزاً، واغتراباً.

لا يعرف لماذا استهوته هذه المخلوقات التي تهيم في ذلك الفضاء المفروش بالزرقة، فوقف أمام الرجل

مشــدوهـاً كـالأبله.

ويبدو أن الرجل لاحظ دهشته فـابتسم بغموض قبل أن يقول:

– هؤلاء هم الأطفـال الذين لم يكن لـهم نصيب من اسم!

قـال الرجل عبـارته بصوت بحيح، ثمّ أضاف:

– تيه، أليس كذلك؟

ظلّ «مسّي»، يتطلّع إلى اللوحة ببلاهـة فلم يُجب. قـال الرجل بذات النبرة الغريبة في الصوت:

– البرزخ هو اسم هذه اللوحة!

«مسّي» المشبع بروح دراويش الطرق الصوفية الذين لقّنوه طويلاً بدلالات حميمة عن البرزخ إلى حدٍّ لا يتجاسر أهل الغفلة لينطقوا في حضوره هذه الكلمة إلاّ لتنتابه القشعريرة ويستيقظ فيه نداء مجهول، لم يملك إلاّ أن يردّد بوجل:

– البرزخ!

ولـكـنّ الـرجـل انـكـبّ عـلـى دفتر أمـامـه لـيـضـيـف بـلـهـجـة كـاللامبـالاة:

– الأمر صدر بحقّ هذه الأرواح للنزول إلى مـا نسمّيه الحياة الدنيـا، أو فلنقل، إلى قمقم الجسد، فلم يملكوا إلاّ الامتثـال. ولكنْ هيهـات..

رفع الرجل رأسه عن الدفتر فجأة. أضاف باهتمام من يولي عناية استثنائية لما سيعلن:

– هؤلاء حُرموا الأسماء فلم يجدوا حيلة إلاّ أن يرتدّوا على أعقابهم، ولكنّ البُعْد الذي أقبلوا منه لا يقبلهم أيضاً بعدما صدر القرار بحقّهم فحسبوا، بناموس العالم الذي أقبلوا منه، في عداد المفقودين. أليس هذا ما اعتدنا أن نسمّيه في لساننا الفاني اغتراباً؟!

تمتم «مسّي» غائباً:

– كم يبدون أشقياء! كم يبدون بلا حول ولا قوّة!

عاد صاحب النظارة السوداء يبتسم بغموضه المعتاد. قال:

– بلى! الإنسان الذي لا يملك أن يصير حيّاً مع الأحياء، ولا ميّتاً مع الأموات، ليس شقيّاً فحسب، ولا طريداً فحسب، ولكنّه مغلولٌ باللعنة!

سكت لحظة. سأل فجأة وهو يعبث بقلم في يده:

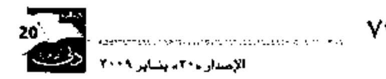
– هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواباً عندما أوضح:

– لأنهم بلا وطن!

ردّد «مسّي» وراءه بلا إرادة:

– بلا وطن!



– هل تدري حقاً ما معنى أن يكون المخلوق بلا وطن؟

سكت «مسّي»، فأضاف الرجل:

– إنه الجحيم!

استلقى الرجل إلى الوراء. تطلع إلى السقف. أضاف:

– البلهاء وَحْدَهم يؤمنون بوجود الجحيم بعد الممات، أو يظنّون أن عذاب الحياة الدنيا يمكن أن يعني الجحيم أيضاً، لأنّهم جميعاً لم يجرّبوا ماذا يعني أن يفقد الإنسان الانتماء إلى أحجية تبدو لهم بلا معنى هي: الوطن!

استدار بكرسيه نحو الجدار ليواجه اللوحة. صاح:

– الجحيم الوحيد هو أن يجد المخلوق نفسه معلّقاً بين هاتين القنطرتين، فلا هو على قيد الحياة فيحيا حياة الأحياء، ولا هو في عداد الأموات فيسكن سكينة الأموات!

أنصت «مسّي» غائباً. تساءل بوجع:

– ولكنْ بأيّ حقّ تُحجب الأسماء عن هؤلاء الأشقياء؟

– الصراع على السلطة!

أجاب الرجل عن سؤاله على الفور؛ ليضيف:

– السلطة هي الحياة كما تعلم!

تأمّل «مسّي» جواب الرجل لحظات قبل أن يتساءل:

– إذا كانت السلطة ملككم، فما الحاجة إلى الصراع؟

– لو كانت السلطة ملكنا حقّاً لعدمنا الحاجة إلى الصراع حقّاً، ولعدمنا، مع هذا العدم، سبب وجودنا أيضاً!

– ظننت أن السلطة على هذه الأرض ملككم وَحْدَكم!

ابتسم الرجل باستخفاف. التفت إليه ليقول بلهجة تفضح خيبة أمل:

– لو كانت السلطة ملكيّتنا حقّاً لاختلف الأمر، ولكنّ أهل السلطان وَحْدَهم يعلمون يقيناً أنهم لا يمتلكون السلطة!

تساءل «مسّي» ببلاهة وهو يلوّح بيديه في الهواء حائراً:

– من يمتلك السلطة إذاً؟

أجاب الرجل وهو يلتفت إلى لوحة الجدار:

– لا أحد!

– لا أحد؟

– لا أحد هنا يجب أن تعني معنى واحداً هو: الربّ!

– الربّ؟

– بلى! الربّ وحده يملك السلطة!

– ظننت أن الرّبّ هو الذي نصّبكم خليفةً في الأرض!

أطلق الرجل ضحكة غريبة. زعق محاولاً أن يتغلّب على البحّة المنكرة في صوته:

– هراء! الربّ لا يعترف بخلافة لا في أرض، ولا في سماء،

ولا في أيِّ مكان أو زمان!

تفكّر «مسّي» قبل أن يدفع بحُجّة:

– لو كان الربّ يتدخل بسلطانه في شؤون الأرض، ما تجاسر الإنسان أن يحجب اسماً عن أخيه الإنسان!

تضاحك الرجل مرّة أخرى. دار حول نفسه بكرسيه الدوّار قبل أن يقول:

– أعرف ما تعلّقونه من آمال على موضوع الخلافة المزعومة، أنتم معشر المستميتين على أبواب السّجلّ المدني، ولكنّي يجب أن أخيّب حسن ظنك بالخلافة، كما يحتّم عليّ الواجب أن أفعل: أنتم تَعَزُّون أنفسكم بالذريّة خوفاً من الموت لا أكثر!

– خوفاً من الموت؟

– بكلمة أخرى: طمعاً في الخلود!

سكت لحظة ليصحّح:

– طمعاً في خلودٍ مزعومٍ بالطبع، ورسالتنا هي أن نوقظكم من الوهم!

– الوهم؟

ولكنّ الرجل عاد بكرسيه ليلتئم بمنضدته قبل أن يقول:

– الحقّ أننا لا نفعل ذلك إكراماً لكم وحسب، ولكنّنا نفعل

ذلك إكباراً للسلطة!

تمتم «مسّي»:

- السلطة..

قاطعه الرجل بحزم:

- لا نفعل ما نفعل بهدف الاستيلاء على السلطة، أو للاستئثار بها، كما يعتقد الكثيرون في هذه الديار، ولكنّنا نفعل ما يجب أن يُفْعَل لنتقاسم السلطة فحسب!

- تقاسم السلطة مع مَن؟

- نتقاسم السلطة مع صاحب السلطة بالطبع. نتقاسم السلطة مع الربّ!

هتف «مسّي» مستنكراً:

- مع الربّ؟

ضحك الرجل باستخفاف، ثمّ غمغم كأنّه يخاطب نفسه هذه المرّة:

- نعيد أرواح الربّ على أعقابهم بحرمانهم من الأسماء، لا تجديفاً في حقّ المشيئة الإلهية كما قد يظنّ بلهاء كثيرون، ولكنْ لنبرهن على جدارتنا بذلك اللّقب الذي وهبه لنا الكتاب بالمجّان، والذي تسمّيه العامة «خلافة الربّ»، لأننا أكثر من يعلم أن الربّ سلطان بالغفران في السماء، ونحن أرباب

بالقمع في الأرض!

– ألن يكون هذا الخيار كفراً بسلطان الربّ؟

– كلاّ، كلاّ! فكما يتشبّه أدعياء الفضيلة بالربّ بممارسة الخَلْوة، نتشبه نحن بالربّ بممارسة السلطة. السلطة تشبُّهٌ بالجانب الآخر من الربّ!

جعجع بضحكة مكتومة وهو يَحْدجه باستكبار من وراء نظّارته السوداء، فتبدّى لـ «مسّي» هشّاً هشاشة كومٍ من القشّ، ولكنّه، في استكباره المجبول بالهشاشة، يُغري بسحقه، كما تُسحق أيّ حشرة ضارّة!

عاد يلقي برأسه على مسند الكرسي باستهتار. ثمّ شيّع رأسه الموشّى بالشيب قبل أن يواصل:

– أرجو ألاّ تنضمّ إلى ذلك الفريق الذي يسيء بنا الظّنون فيتّهمنا زوراً بالتجديف، لأننا في واقع الأمر حاولنا بإخلاص أن ننجز صفقة مع الربّ تقضي باقتسام السلطة، قبل أن تكشف لنا التجربة مدى سذاجة نوايانا! هل تدري لماذا؟

زفر باستخفاف وهو يعتدل في جلسته، ثمّ أجاب ضاحكاً:

– لأن السلطة كالمال، بل كالربّ نفسه، معشوقة ترفض باستنكار أن تشرك بنفسها أحداً!

عاد يتضاحك باستهانة قبل أن يتجهّم فجأة ليعلن:

– رفض الربّ العرض، فلم نجد مفرّاً من أن ننصّب أنفسنا خصوماً للربّ!

لوّح بكلتا يديه في الهواء قبل أن يختتم مرافعته المنكرة:

– لم نرتكبِ هذه الخطيئة خياراً كما يروّج خصومنا في هذه الديار!

أعقب العبارة بضحكة استجاب لها بدنه بزعزعة عنيفة، ليبدو لـ «مسّي» في تلك اللحظة مثل جرادة في مهبّ الريح!

ولكنّ الرجل دعاه إلى الجلوس على الكرسي الجلدي المجاور بإشارة من يده، وعندما قام «مسّي» بتلبية الدعوة أملاً في أن تسهم المواجهة في وضع حدّ لشهوة الرجل إلى القول، فوجئ بذلك الشبح ينهض من مقعده الهزّاز، ليخطو في القاعة الواسعة ذهاباً وإياباً عاقداً يديه وراء ظهره. دبّ هنا وهناك زمناً قبل أن يتجه نحوه ليقف فوق رأسه. مال على أذنه قليلاً ليقول:

– إذا كان ربّ الأرباب قد أنكر أن يُشرك بسلطانه أحداً سواه، أفليس من حقّنا أن ننكر على الأغيار، بالمقابل، أن يشركونا السلطان في أرضنا؟

التقط أنفاساً قبل أن يضيف بنبرة وعيد:

– وإذا كنّا قد أنكرنا على الربّ نفسه أن يشاركنا هذا السلطان على هذه الأرض، فكيف تتخيّلون، أيها الحمقى، أن نقبل شراكة المخلوق الفاني على هذه الأرض؟

تمتم «مسّي» بدهشة:

– الحقّ أني لا أفهم حتّى الآن لماذا اخترتني، أيّها السيّد، كي تسمعني هذا الكلام!

تنحّى الرجل جانباً. سكت لحظة، ثمّ تنازل ليجلس على كرسي مقابل ضيفه. أسند مرفقيه إلى ركبتيه. مد رقبته إلى الأمام فأبصر «مسّي» من وراء عتمة العدسة الطبيّة شبحاً لعدسة اصطناعية أخرى تقوم مقام مقلة العين، فاشمأزّ من دون أن يدرك السّبب. قال الرجل:

– اخترتك لتسمع هذا الكلام لأني أعلم الناس بنوايا أمثالك من الناس!

انتابت «مسّي» رجفة. كانت الرجفة تعبيراً عن رغبة جنونية في الاستنكار. نفّس عن انفعاله بزفرة حارّة. قال:

– أيّة نوايا خفيّة يمكن أن يعنيها تقديم طلب إلى السلطات المختصّة بتسجيل اسم مولود؟

حدّق فيه الرجل بحدقته الاصطناعية المقزّزة قبل أن يجيب:

– السرّ ليس في الطلب، بل السرّ في الاسم!

– أيّ سرّ يمكن أن يخفيه اسم أطلق على ولي عهد مواطن ينتمي إلى هذه الأرض، تيمّناً بسلفٍ كان فخراً لهذه الأرض التي لم يجد السيّد حرجاً في أن يتباهى بامتلاكها في كلمته منذ قليل؟!

ابتسم الرجل بغموض. تكلّم بهدوء يعبر عن الثقة بالنفس:

– ها هو زَلَلُ اللسان يخذلك فتدلي بجملة اعترافات مرّة واحدة دون أن تدري، وإلاّ ما المقصود بولاية العهد التي توهم نفسك بها؟ وإذا افترضنا أنها زلّة لسان حقّاً (على رغم عدم ميلي إلى تصديق زلل هذه العضلة)، فما معنى تجاهل الأسماء الواردة في القائمة المعتمدة في هذه الديار منذ سنوات، والبحث في عهود الظّلمات عن أسماء مريبة بدعوى الوفاء لوصايا الأسلاف، إن لم تكن كلّ هذه الحيل مجرّد أقنعة لإخفاء النوايا المبيّتة التي لم تعد تخفى على أحد؟

تابعه «مسّي» بذهول. وعندما انتهى الرجل من كلمته عَمَّ سكون مزموم. ولكنّ «مسّي» لم يجد مفرّاً من الإدلاء بشهادة رآها عملاً مشروعاً للدفاع عن النفس:

– لا أحسبك ترى في عبارة «وليّ العهد» نيّة يمكن أن تتستّر على مكيدة من أي نوع، وإلاّ لوجدت نفسك تأمر بالاقتصاص

من الأبرياء أخذاً بالحرف..

قاطعه الرجل بحدّة:

– إيّاك أن تستهين بالحرف؛ لأن الحرف في ناموسنا (بل وفي كلّ النواميس على ما أعتقد)، هو المرجع الأخير، فاحترس!

– لو كان الحرف هو المرجع، فلماذا تقول الوصّية إن هذا الحرف هو الذي يميت في مقابل روح الحرف التي تُحيي؟

– لم أسمع بهذه الوصيّة إلاّ منك!

تطلّع إليه «مسّي» بخيبة أمل. أضاف:

– تتهمني بتجاهل أسماء وردت في قائمة مزعومة لم يسمع بها أحد..

هبّ الرجل في وجهه:

– ماذا؟ هل قلت قائمة مزعومة؟ هل قلت لم يسمع بها أحد؟ اعلم، أيها المواطن، أن القائمة حقيقية، ولم تكن يوماً مزعومة إلاّ في أذهان أولئك الذين لا يريدون أن يعترفوا بها أمثالك؛ وهو إنكار صريح كفيل بأن تترتّب عليه نتائج خطيرة بسبب ما يخفيه من استهانة باللوائح! أمّا التحجُّج بجهل أمر القائمة فذلك عذر أقبح من ذنب، لأن الجهل بالقوانين لا يُجير من قصاص القوانين كما تعلم!

– ما أعلمه أيضاً أن القوانين لم تحرِّم يوماً أن يطلق مواطن اسماً على مولود تيمناً بأب أو جدّ أحد الأسلاف!

– باستثناء الأسماء المشبوهة المنصوص عليها في اللائحة المذكورة التي لم تصدر إلاّ لتصحيح ضيق أفق القوانين المعمول بها سالفاً!

– هل تصدر مثل هذه التعديلات لتصحيح ضيق أفق القوانين المعمول بها، أم أنها تصدر لتضييق أفق هذه القوانين؟

– احترس!

– أردت أن أقول إن الواجب يقضي بتعميم هذه اللوائح القاضية بتعديل القوانين المعمول بها بدل التكتّم عليها!

– هذه مسألة تتعلّق بالأجهزة التنفيذية، وليست ذات صلة بصلاحيّات الأجهزة التشريعية. وفي كلّ الأحوال فإنّ الجهل بالقوانين لا يبيح العبث بالقوانين كما اتفقنا منذ قليل.

أخرج من جيبه منديلاً مسح به عرقاً غزا جبينه، أعاد المنديل إلى جيبه قبل أن يقول:

– المشكلة لا تكمن في أيّ اسم، ولكنّها تكمن في هذا الجنس من الأسماء!

استفهم «مسّي» إيماءً، فأضاف الرجل:

– لأن لجنة الأسماء التي أتولى أمرها؛ ليست الدائرة الوحيدة المخولة للبتِّ في مثل هذه الأسماء!

طأطأ «مسّي». تمتم بتسليم:

– أفهم..

ولكنّه ما لبث أن استبدل بالتسليم عناداً مفاجئاً:

– ولكنّ ابني مازال محروماً من الانخراط في التعليم، مُضْطهداً بين أقرانه بسبب فقدان الاسم، مهدّداً بالسجن من قبل قوى الأمن بسبب الحرمان من هوية إثبات الشخصية. يحدث كلّ هذا بسبب غياب الاسم! أدرك عتبة حرجة في العمر من دون أن يحيا، لا لشيء إلاّ لأن أهل العمران يعترفون بهويّة بائسة مدوّنة على قرطاس تافه، وينكرون إنساناً من لحم ودم يدبُّ أمامهم على قدمين؛ عكس أهل الصحراء تماماً!

تمتم الرجل وهو يستلقي إلى الوراء:

– للصحراء دين، وللمدن دين آخر يختلف تماماً!

زفر ثمّ أضاف:

– العمران يشتري بعملة مزوّرة هي الأمان الزائف ليصادر الحريّة بهذا الثمن البخس!

ثمّ استدار ليشير إلى اللوحة المرسومة على الجدار ليقول:

– تلك اللوحة هي الترجمة الحرفيّة لهذه الوصيّة المحزنة!

تأمّله «مسّي» مليّاً قبل أن يتساءل:

– هل لي أن أستعلم عن الدائرة المخوّلة بالبتّ في مثل هذه الأسماء، إذا كانت الدائرة التي تتولّون أمرها ليست هي المخوّلة كما تقولون؟

زفر الرجل أنفاس السّخاء قبل أن يتمتم وهو يهمّ بالنهوض إشارة إلى إنهاء المقابلة:

– ذلك اختصاص الدائرة الأمنيّة!

11

– يدهشني أن أراك تدبّ على قدمين!

قالها موسى بلهجة مقنَّعة فلم يعرف «مسّي» عما إذا كان قرين الانتظار جاداً أم هازلاً. ولكنّه أضاف:

– صاحبك هو رئيس لجنة الأسماء، وهو داهية قلّما أفلت من بين يديه ضحيّة. إنه تنّين!

– لا يبدو تنّيناً.

– ليس المهم ما يبدي، ولكنّ المهمّ ما يخفي!

– هل يمتلك سلطة ألعن من سلطة الاستجواب؟

– ما أعلمه أن الاستجواب، في سياسته، ماهو إلاّ جولة أولى في المبارزة.

ظَنُّ جليسه موسى لم يَخِبْ في ذلك اليوم، لأنّ شبح المحفل وقف فوق رأسه قبل أن يكمل عبارته تلك. أومأ له كما فعل في المرّة الأولى لينطلق به نحو الباب الجانبي المؤدّي إلى الدّهليز السفلي. غزته رائحة الرطوبة ما أن قطع به الدليل مسافة عبر العتمة. تعرّج السبيل هذه المرّة في انحرافات تفوق انحرافات الرحلة السابقة. كانت الأضواء الخافتة تضيء الدرب ضياءً شحيحاً في بعض الأجزاء، وكانت تحتجب في مسافات أخرى فتكاد الظلمات تبتلع كلّ شيء. ويبدو أن الانحرافات المتكرّرة

في السبيل (التي تضاعفت هذه المرّة لتتحوّل إلى متاهة)، اخترعت خصيصاً لتسلية العابر لا لدفع الملل فحسب، ولكنْ لمقاومة فقدان الإحساس بالزمن، بل ولمقاومة فقدان الإحساس بالمكان أيضاً. وهو إحساس عرفه في الرحلة الأولى سواء في علاقته بالزمان، أو فيما تعلّق بالمكان. فقد اكتشف أنه لم يمكث في تلك التجربة بضع ساعات كما تخيل في البداية، ولكنّه لم يصدّق عندما اكتشف أنه غاب في الدّهليز زمناً أطول بكثير. كما استولى عليه الإحساس بالإسراء من المكان ليجد نفسه قد ارتحل بعيداً عن موقع بنيان السّجلّ المدني، على رغم عزلة هذا البنيان إذا قورن بالأبنية الأخرى. ويبدو أنها عزلة لم تخترها طبيعة البنيان الخفيّة في عرف الأجيال، بقدر ما رجع الفضل فيها إلى عراقة البنيان الذي يرجع بتاريخه إلى عهود ما قبل التاريخ؛ أي إلى تلك الأزمنة الموغلة في القدم التي لم يكن فيها العقل البشري مؤهّلاً لتخصيص بنيان مهيب كهذا ليكون حكراً على توثيق الأسماء (على رغم أن روايات كثيرة تؤكّد أن ألواحاً حجريّة وُجدت مراراً مطمورة في أقبية البنيان، محفورة بأسماء عسيرة النطق برموز الأبجدية الصحراوية الأقدم عهداً من كلّ الأبجديات المعروفة كما يؤكّد الدهاة)، ولكنّه لم يكن ليبخل على أضرحة



الكهنة بتشييد عمل عمرانيّ كهذا، لا إكباراً لمواهبهم فحسب، ولكن حفاظاً على حضورهم بينهم (هذا الحضور الذي أطلقت عليه الأجيال فيما بعد اسماً غامضاً هو الخلود)، ليتحوّل هذا الضريح مع مرور الأيام، وتتابع مراسم الإكبار، إلى ما توارثته الأجيال لاحقاً في اسم المعبد.

وعَلَّ السيماء المرسومة على حجارة البنيان أكبر شهادة على هويّة جوف الهويّات هذا، القاضية بانتمائه إلى تلك العصور التي تصفها ذاكرة الأجيال بعبارة «الزمن الذي كانت فيه الحجارة ماتزال رطبة»، وذلك للتعبير عن بصمة اليد، بأصابعها الخمسة، التي وُجدت مجسَّمة على أحد حجارة البنيان من الداخل، أو بصمة القدم التي عثر عليها أيضاً مجسّدة في حجر أحد الأركان، أو صورة الرجل الذي يحتضن امرأته في وضع مقدّس (حسب وصف الكهنة القدماء)، أو فلنقل في وضع مخجل (إذا استخدمنا لغة الكهنة الأحدث عهداً) التي ماتزال تتصدّر واجهة البنيان المجيد الخارجية (على رغم عدم نجاتها من عبث أهل العماء الذين يرون في فعل الإنجاب إهانة للذوق العام، بل ودنساً يهدّد نقاء الإيمان)، لتصير تلك اللوحة شعار البنيان عبر العصور رغم أنف المتزمّتين، ولتنقلب الأب الشرعي للوحة الملائكة، أو

الأرواح البريئة المعتقلة في البرزخ التي رآها مختومةً على الجدار فوق رأس رئيس لجنة الأسماء بدائرة السّجلّ المدني.

ولكنّ البصمات على جدران البنيان لم تكن العلامة الوحيدة الدّالّة على القِدْمة. فهناك لغة أخرى ترويها الحجارة نفسها. ترويها في اللّون. ترويها في الملمس. ترويها في الحال: الحجارة في البنيان تروي عمرها الغابر في السواد الذي طبع كلّ حجر كأنّه حزن الشيخوخة. تروي سيرة اللهفة في الأيدي التي لامستها عبر الأزمان تبرُّكاً بها فتترجم، على رغم الاكتئاب، وقار الحكمة، بل وتفوّق هذا اللغز على جلاّد الزمن الذي لا يغفر لأبنائه خطيئة الميلاد. تروي بطولة الإيمان بطبيعة الأشياء، لأن الحُفَر في صلدها، أو حملات الترميم في صلبها، ما هي إلاّ الكلمة الأخيرة المعبِّرة عن البهجة التي لا بدّ أن يستشعرها كلّ من بلغ نهاية الطريق بعد أن عرف الأهوال في رحلة الطريق!

12

مرق به الدليل من أحد الأبواب ليجد نفسه في ممرّ حسن الإضاءة، مفروش ببساط أخضر، عاري الجدران إلاّ من شريطٍ خشبيّ يتسلّق حيطان الممرّ من الجانبين بضعة أشبار. على جانبي الممرّ انتصبت أبواب موصدة كئيبة اللون. في المكان ساد هدوء المقابر.

في نهاية الممرّ، جلس رجل أمام أحد الأبواب محتجباً وراء صحيفة، ولكنّه هبّ واقفاً في اللحظة التي وقف فيها الدليل أمام الباب. هَمَّ الرجل أن يعترض سبيله، ولكنّ الدليل تمتم بعبارة مبهمة كأنّها كلمة سرّ، تراجع بعدها الرجل إلى الوراء خطوتين ليفسح له السبيل. دلف الدليل إلى الداخل وتركه خارجاً. وجد نفسه، بغياب الدليل، أَعْزلَ في مواجهة ذلك المخلوق المقنّع باللامبالاة. ولكنّ الرجل تجاهله ليحتجب من جديد بصفحات صحيفته. في تلك اللحظة فقط ساءل «مسّي» نفسه أين سبق له أن التقى هذا الرجل. ويبدو أن عدوى الإلهام انتقلت إلى الرجل أيضاً، لأن «مسّي» لاحظ كيف اختلس إليه الرجل نظرة فضول من وراء حجابه. تبادلا نظرة طويلة كانت كافية لكي يتعرّف «مسّي» في سيماء الرجل إلى ساعي السّجلّ المدني الذي اختفى عقب إدلائه بوصيّته الغامضة. ويبدو أن

الرجل تذكّره أيضاً، لأنه ابتسم في وجهه قبل أن يغمغم:

– لا يسرّني أن أراك في هذا المكان، ولكنّ الحركة أعظم حظّاً إذا قورنت بالسكون!

عاد يتستّر بقناع لامبالاته في اللحظة التي خرج فيها الدليل، ليدعوه إلى الدخول، ليجد نفسه في قاعة فسيحة شبيهة بقاعة داهية الأسماء، مع فارق هام هو خلوّها من لوحة البرزخ التي تعتقل ذريّة الغرباء.

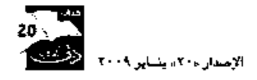
بجوار الجدار انتصبت منضدة رمادية، تصدّرها رجل في العقد الخامس أو السادس من العمر. إلى جواره جلس رجل آخر بدا أصغر سناً، ينكبّ على دفترٍ مجرّدٍ من الغلاف، ممسكاً بقلم تأهّباً لتدوين الملاحظات.

أومأ له الرجل الأكبر سنّاً بالجلوس في اللحظة التي انصرف فيها الدليل، فاستشعر «مسّي» اغتراباً غامضاً، كأنّ رفقة ذلك الشبح المريب حقّقت له أماناً خفيّاً حتّى إذا سلّمه الرجلُ إلى كلّ جلاد جديد عَدَّ ذلك التخلّي خيانة لا يجب أن تُغْفر لحميم.

تطلّع إليه الرجل الأكبر سناً ببرود قبل أن يأمر:

– الوثيقة!

لم يفهم «مسّي» فأوضح الرجل:



– وثيقة إثبات الهوية!

أخرج «مسّي» وثيقة إثبات الهوية ليضعها أمام الرجل على المنضدة. تطلّع إليها الرجل بحذر قبل أن يتناولها بين يديه. قرأ بصوتٍ مسموعٍ مجبولٍ بنبرة إدانة كأنّه يوجّه تهمة:

– مسّي بن مسّي بسّابن مسّي نسن!

ألقى بالوثيقة إلى الرجل المجاور ليأمر:

– سجّل!

ثمّ سدّد إلى «مسّي» نظرة وعيد قبل أن يتساءل:

– هل هذا اسم، أم أحجية؟!

ابتسم «مسّي» بحزن. أجاب:

– هذا هو الاسم الذي لم أختره لنفسي، كما لم أختر لنفسي وجهي أو لون جلدي!

حدّق فيه الرجل طويلاً قبل أن يأمر رجل الجوار همساً:

– سجّل!

انحنى الرجل الأصغر سنّاً على دفتره ليدوّن وقائع الاستجواب، في حين تساءل الرجل بلهجة فوز:

– ولكنّك اخترت لوليدك اسماً لا يقلّ غموضاً عن الرطانة الواردة في هذه الوثيقة حسب علمي!

التفت إلى صاحب الدفتر مستفهماً فأنجده الرجل:

- يوجرتن يا سيدي!

زأر:

- يو جرتن!

ثمّ أضاف بازدراء:

- يا له من اسم! كأنّه سبّة وليس اسماً!

بذل «مسّي» جهداً بطولياً كي يقمع غضبة. قال:

- لو عرف السيّد المبجّل حقيقة هذا الاسم لما سمح لنفسه بأنْ ينعتهَ بالسّبة!

استلقى الرجل إلى الوراء. تطلّع إليه بعداء قبل أن يجيبه مستهزئاً:

- لا أظنّه كان اسماً لنبي من الأنبياء في كلّ الأحوال!

- بلى، بلى!

استنكر الرجل:

- لم يكفك أن تستهين باللوائح المعمول بها في البلاد، ثمّ تسمح لنفسك بالتجديف في حقّ الدّين أيضاً؟

استمهل رجل الجوار بإيماءة. قال مفتعلاً اللّين:

- يحسن بك أن تتراجع عن جهالتك قبل فوات الأوان!

لم يكترث «مسّي» للتهديد. أضاف:

- الأنبياء رُسُل حريّة، ويوجرتن كان رسول حريّة!

حدّق الرجل في وجهه طويلاً قبل أن يقول:

- يؤسفني ألاّ أتمكّن من إقناعك بسحب هذا التصريح!

أومأ لرجل الجوار بتدوين الإجابة، ثمّ التفت إلى «مسّي» ليلقي بسؤال جديد:

- هل تلقيتَ نصيباً من تعليم؟

- بالطبع!

- في أية جامعات؟

سكت «مسّي». تبسّم بغموض. أجاب:

- الصحراء في مسيرة تعليمي كانت أولى الجامعات!

حدجه الرجل بدهشة قبل أن يسأل بلهجة استنكار:

- هل تسخر منّي؟

- كلاّ!

مضى الرجل يحدّق في وجهة بسيماء غاضبة، ولكنه انفجر فجأة في ضحكة طويلة صاخبة، فأضاف «مسّي»:

- ثمّ عبرت إلى الواحات فنهلتُ المعارف من المكتبات.

تطلّع إليه الرجل باسماً. قال ساخراً:

- وكيف تبدو معارف الواحات بالمقارنة مع معارف الصحراء؟

- يوم في رحاب الحريّة يعلّمنا أكثر مما نتعلّمه من بطون

كتب الدنيا كلّها.

صمت «مسّي» فمضى صاحب الاستجواب:

- ماذا عن الوضع العائلي؟

- فقدتُ رفيقتي أخيراً.

- هل كان السّبب داءً؟

- الأطباء يقولون داء القلب، ولكنّي أقول إنّه داء الكَمَد!

- داء الكَمَد؟!

- لفظت أنفاسها حزناً بسبب الاسم!

- ما الذي يحملك على يقينٍ كهذا؟

- لو وُهب السيّد المبجّل ولداً بعد انتظار طويل جدّاً، ولكن فرحته لم يكتب لها أن تكتمل بسبب حرمان الوليد من شهادة إثبات الوجود على قيد الحياة، أفلن يكون ذلك كافياً لزعزعة سكينة كلّ أفراد العائلة؟

لوّح الرجل بيده في الهواء بضيق قبل أن يهوّن الأمر:

- بلا مبالغات!

فكّر الرجل لحظات. تساءل:

- هل لي أن أعلم كيف تسنّى لك الحصول على هذه الهويّة الممهورة بمثل هذه الأسماء؟

رمقه «مسّي» بدهشة. تعجّب:



– لا أحسب السيّد المبجّل يتهمني بالتزوير!

– من حقّي أن أتساءل عن الكيفية!

تململ «مسّي»، ضيقاً. قال:

– من الواحة. من آخر واحة سبقت نزولي هذه المدينة.

– ما يهمني هو الكيفية.

– بالكيفية المتّبعة مع كلّ أهل هذه البلاد الذين أجبرتهم الطبيعة على أن يغتربوا عن الحريّة ليسلموا زمام أمرهم لجلاّد الاستقرار!

– تقصد شهادة الشهود؟

– اثنا عشر شاهداً كما تشترط اللوائح!

تناول صاحب الاستجواب وثيقة الهويّة من أمام مساعده المنهمك في تدوين أقوال المتهم. تفحّصها بإمعان. قال من دون أن يرفع رأسه:

– ولكن اللوائح لا تجيز منح مثل هذه الوثائق بمثل هذه الأسماء حتّى لو شهد لمصلحة حاملها ألف شاهد!

– هل أُلام على حيازة مستند رسمي مستخرج من دائرة رسمية لمجرّد أنّها فرعيّة؟

تمتم صاحب الاستجواب وهو يتسلّى بتقليب الوثيقة بين يديه:

– الشهادة التي تخالف اللوائح المعمول بها لا تختلف عن شهادة الزور!

استنكر «مسّي»:

– شهادة الزور؟

تجاهل الرجل سؤال المتهم، ليعلن كأنّه يقرأ نصّاً مدوّناً في قرطاس:

– والقانون في هذه الحال لا ينصّ على مصادرة الشهادة فحسب، ولكنه يقضي لصاحبها بالمساءلة.

– المساءلة؟

لم يجب صاحب الاستجواب، ولكنّه ألقى بالوثيقة إلى مساعده بالجوار ثمّ تطلّع إلى السقف ليقول:

– هذا تدبير ضروري لحماية الهويّة من أدعياء الاغتراب!

– أدعياء الاغتراب؟

– أدعياء العودة الذين انقضُّوا على البلاد في السنوات الأخيرة انقضاض الجراد، ما إن اشتمُّوا في ربوعها رائحة الثروة، في حين تخلّوا عنها يوم حاقت بها البليّة!

أنصت «مسّي» بذهول. تململ من جديد ليكتم انفعالاً. غمغم:

– ولكن اغترابي لم يكن عودة من أي مكان!

حدّق الرجل فيه باستهانة. قال ساخراً:

– لا أحسبك سقطت على هذه الديار من السماء!

– أعني أن الصحراء التي جئت منها جزء لا يتجزأ من هذا الوطن، علاوة على أنّها لم تكن يوماً مكاناً ككلّ مكان.

كتم الرجل ضحكة. أومأ إلى مساعده أن يهمل العبارة من محضر الاستجواب. تبادلا بسمة ذات معنى. تهكّم بعدها الرجل:

– إذا كنت تعترف بأن الصحراء ليست مكاناً فلن تكون إلاّ سماءً!

خنقت العَبْرة «مسّي» بسبب عجز العبارة. أغمض عينيه مستسلماً لرجّة كمسّ الوجد. قال أخيراً:

– أردت أن أقول إنّي لم أعد من غربة خارج حدود هذا الوطن، حتّى أُعَامل كفرد من أفراد جيوش العائدين!

– لا أريدك أن تنسى أن في داخل جوف هذا الوطن يسكن أهل عودة من جنس آخر، يشكّلون على وحدة الهويّة خطراً يفوق بكثير الخطر الذي تشكّله الجيوش العائدة من الخارج!

سكت لحظة ثمّ أضاف بلهجة ذات معنى:

– أولئك هم حملة الأسماء الدخيلة التي تريد أن تقنعنا بوجوب التسامح معهم.

– أليس خطيئة في حقّ الوطن أن نمنع من التداول تلك الأسماء التي افتدى أصحابها حريّة الوطن بأرواحهم يوماً؟!

– نحن نضع وحدة الهويّة فوق كلّ اعتبار، لأننا لانحيا بناموس التاريخ، ولكنّنا نحيا بقوانين الواقع الحاضر.

– اللهفة على وحدة الهويّة لا تجيز لنا أن نطلق النار على التاريخ!

سكت صاحب الاستجواب فأضاف «مسّي»:

– إكبار الأسلاف لا يهدّد وحدة الهويّة، لأن شروط أيّ وحدة هويّة إنما تكمن في لمّ شمل الأجزاء، لابدّ الإسفين في الكيان ليتفتّت إلى أجزاء!

سكت «مسّي». سكت الرجل أيضاً. تبادلا نظرة قبل أن يضيف «مسّي»:

– أردت أن أقول إن احتواء الأجزاء، في يقيني، دائماً ثراء، أمّا التحريم فليس تمييزاً فحسب، ولكنه عماء!

– هذه شهادة تستطيع أن تدلي بها أمام ذوي الاختصاص!

قالها رجل الاستجواب بجفاء قبل أن يستنزل على وجهه قناعه الملفّق من برودٍ واستعلاءٍ واستسرار.

13

وقف «مسّي» أمام بنيان السّجلّ المدني ليتأمل اللوحة من جديد: كانت محفورة في حجارة البنيان بإتقان شديد. أبدع الفنّان في تجسيد الحميمين المشتبكين في عناق الاستسرار المجبول، في ناموس كلّ الأمم، بالقداسة؛ لأنّه يأتي بالأسماء إلى الدنيا. في سيماء الرجل لم يكتفِ المبدع المجهول ببث إيماء الرجولة البدنية، ولكنه أفلح في اقتناص ذلك البُعد الغامض الذي اعتاد كهنة الأجيال أن يطلقوا عليه اسم الروح. كأنّ الداهية أراد أن ينقل للأخلاف رسالة تقول ترجمتها إن هذا اللغز (الروح) هو غنيمة الرجل، كما الطبيعة (الجسد) هو كنز المرأة. بهذه الصفقة يستزرع الرجل أحجية الخلود في بطن الطبيعة الزائلة لتنتج هذه المبادلة اسماً باقياً!

ولكن يد الفساد امتدّت، في زمنٍ ما، لتشوّه فتنة الالتحام بتخريب أعضاء القرينين التناسلية بحجّة الانتصار للفضيلة. ويقال إن دعوى حماية ناموس الفضيلة هذه هي التي أدّت، في مراحل الانحطاط، إلى الاستغناء عن اللوحة كشعار لمملكة السجل المدني لتستبدل بها شعارَ البرزخ الذي يهيم فيه الملائكة الذين بخل عليهم كهنة المعبد بالأسماء، لسببٍ من الأسباب، ليجعلوهم طعاماً للاغتراب الأبدي.

في ذلك اليوم كان على المواطن المدعو «مسّي» أن يحيا فصلاً جديداً من فصول سيرة اغترابه أيضاً؛ لأنّه وجد أحد أشباح السجل المدني في انتظاره ما إن دخل رحاب المعبد ليقوده عبر دروب البنيان السفليّة حتّى يبلغ به أحد الأبواب التي كان عليه أن يكتشف فيما بعد أنّها لم تكن سوى دائرة المغتربين.

هناك استقبله مخلوق طائش في مقتبل العمر، ليزفّ إليه نبأ صدور القرار القاضي بمصادرة وثيقة إثبات الهوية رسميّاً، بعد أن قطعت في رحلتها بأقبية الدوائر شوطاً طويلاً منذ جرّدتها منه اللجنة الأمنية بحجّة التحقّق من صحّتها. الشبح الجديد الذي أبلغه بنبأ المصادرة. أضاف قائلاً إن المبرّر الوارد في حيثيات القرار يتحدّث عن غياب الأدلّة في وثائق الهويّة المكتسبة، علاوة على تجاوز صلاحيات دائرة المغتربين في الحصول على الهويّة قيد المصادرة!

أنصت للنبأ بسيماء جامدة، وعندما انتهى ذلك الشبح البائس من تلاوة حيثيات القرار تساءل:

– هل يجزم السيّد بأنني المعني حقّاً بهذا القرار؟!

حَدَجه الموظّف بدهشة، فأوضح:

– أعني أن الأخطاء هذه الأيام..

قاطعه الرجل بحدّة:

– هل تسخر منّي؟

ثمّ جاس بيده في أحد الأدراج ليستخرج منها ملفّاً شاحباً، تصفّح أوراقه في ضيق بيّن قبل أن يتناول من جوفه ورقة رسميّة متوّجة بشعار السّجلّ المدني المهيب الذي تغترب فيه أرواح أولئك الذين حُرموا الهوية، فنُبذوا، فلم يتصوّر يوماً أن ينضمّ إلى قافلتهم ليصير، بجرّة قلم، عضواً في محفلهم وهو الذي سعى زهرة عمره جاهداً كي ينتزع خليفته في الأرض من براثن محفلهم!

دفع له الموظّف بالقرار ثمّ ألْحَقَه بالسّجلّ قائلاً:

– التوقيع في السجلّ مقابل الاستلام من فضلك.

تطلّع «مسّي» إلى صفحة القرار ذاهلاً. تمتم غائباً:

– ولكنّي لست مغترباً حتّى يتطلب حصولي على الهويّة وثائق أدلّة!

– لو لم تغتربْ ما احتجتَ إلى استخراج هويّة في الواحة. استخراج الهويّة قدر المغتربين!

– اضطررت إلى استخراج هوية من فرع السّجلّ المدني في الواحة، بسبب عدم وجود سجل مدني في مسقط رأسي الصحراء!

– غياب السّجلّ المدني في صحرائك ليس ذنب السّجلّ المدني.

– ولكنه ليس ذنب الصحراء أيضاً!

– هل تستطيع أن تُقْنِعَ سلطات السّجلّ المدني بهذا اليقين؟

– ولكنّي نلت شهادة الميلاد بشهادات الشهود كما تقضي اللوائح المتبعة!

– هل تستطيع أن تُقْنِع بهذه الحجّة سلطات السّجلّ المدني؟

سكت «مسّي» عجزاً. قال الرجل:

– كلّ من اغتربَ عن هذه الأرض دفع الثّمن غالياً. هل تعرف لماذا؟

كشّر في وجهه بابتسامة كشفت عن أسنان ناتئة كأنياب الوحوش قبل أن يقول:

– لأن الاغتراب في عرف الوطن خيانة للوطن!

تأمّله «مسّي» ملياً، ثمّ دفع إليه بالقرار قائلاً:

– يؤسفني ألاّ أستطيع استلام هذا القرار!

استنكر الموظّف المختصّ:

– هل ترفض قرار لجنة المغتربين؟

أومأ «مسّي» إيجاباً، فتكلّم صاحب الاختصاص:

– يؤسفني أن ترفض استلام القرار، لأنّك إن لم تفعل اليوم

بالتي هي أحسن، فسوف تُضْطَرُّ إلى استلامه غداً بمحضر شرطة!

استدار «مسّي» خارجاً، ولكن موظّف الاختصاص لاحقه بعبارة عزاء:

– استلام القرار لا يعني الاعتراف بفحوى القرار؛ لأنّ من حقّك دائماً أن تطعن في شرعيّة القرار!

14

خاطب رفيق منفاه في جوف السّجلّ المدني قائلاً:

– خرجتُ في غزوة لاسترداد الاسم المغتصب؛ فإذا بي أجد نفسي وقد أضعتُ، في طريق العودة، اسمي أيضاً إلى جانب الاسم المغتصب!

اغتصب ضحكة مريرة قبل أن يضيف:

– أنا الآنِ أيضاً بلا اسم!

رمقه موسى برثاء قبل أن يتمتم:

– يصعب تصديق هذا!

– هل سبق لك وسمعتَ بمخلوقٍ يُنتزع منه اسمه كما ينتزع الثوب بعد أن قطع في العمر شوطاً كهذا؟

ردّد موسى:

– يصعب تصديق هذا!

– أنت تعرف بالطبع ماذا يعني في هذا الزمان أن يجد الإنسان نفسه عارياً من الاسم.

طاف موسى وجوه المواطنين في دخولهم وخروجهم بعينين غائبتين، فأضاف «مسّي»:

– أوّل نكتة شريرة اعترضتني بعد هذه الهديّة، هي رفض البلديّة تجديد ترخيص الحانوت!

– لا!

هتف موسى بصوت عالٍ لفت انتباه بعض أعضاء المحفل. انكمش حول نفسه كقنفذ في حين مضى «مسّي»:

– الحقّ أنّه إجراء لم أستنكره، لأنّه مجرّد نتيجة منطقية إذا قورن بقرار سحب الهويّة!

سكت «مسّي». علّق موسى بعد لحظات:

– ولكن ألا يبدو هذا العمل مكيدة مدبّرة للاستيلاء على القوت؟!

– الاستيلاء على القوت عدوان أهون إذا قورن بمصادرة الاسم!

– يدهشني أن أسمعك تتحدّث عن البليّة بمثل هذه الروح.

– لا أفعل ذلك من باب ادّعاء البطولة، ولكن اليأس أيضاً خلاص!

– ألا يمكن فعل شيء قبل التسليم باليأس؟

– موظّف المغتربين لاحقني بقشّة الطعن يوم رمى في وجهي بقرار اللجنة.

اختلس موسى إلى جليسه نظرة. سأل بلهجة شكّ:

– هل تصدّق وجود فرصة للطعن في قرار صادر عن مثل هذه اللجان؟

– الحقّ أني لا أريد أن أصدّق حتّى لا أطمع في وجود الأمل!

– تتحدّث كأنّك وجدت في اليأس الخلاص حقّاً.

– لا أريد أن أخفي عليك: في جعبتي تتخبّأ وسوسة لا أريد أن أستجيب لها.

– وسوسة؟

سكت «مسّي». راقب زحام المواطنين وهم يتدافعون بالمناكب للوصول إلى الحاجز. قال:

– بوسعي أن أعود من حيث أتيت.

التفت إليه موسى بدهشة:

– هل تنوي العودة إلى الصحراء حقّاً؟

– القافلة التي لا تعود إلى الوراء قافلة مفقودة!

– ولكن كارثة الجدب التي حدّثتني عنها مرّة أبادت كلّ ما متّ بصلة إلى الحياة!

في زحام المواطنين علا هرج. انتظر «مسّي» حتّى هدأ الضجيج، فعاد يتكلّم بنبرة من يحدّث نفسه:

– معاندة الجدب تبدو لي أهون من معاندة اللجان.

حدّجه موسى. في مقلة رفيقه أبصر «مسّي» الإيماء المميت الذي لا يختلف عن طعنات النصل. أبصر الشفقة فأغمض عينيه. قال موسى:

– أيعقل أن يلقي الإنسان بنفسه إلى أحضان التهلكة قبل أن يطرق آخر باب؟

ولكن «مسّي» غاب بعيداً:

– في الصحراء فقط لا يحتاج الإنسان إلى وثيقة إثبات هويّة، ولا إلى رخصة بممارسة مهنة، ولا حتّى إلى اسم!

– لا يحتاج إلى اسم؟

– لا يحتاج إلى اسم، لأنّه يستطيع أن يطلق على نفسه أيّ اسم يشاء من دون أن يخالف اللوائح المعمول بها!

– لن يخالف اللوائح، لأنّه لا وجود في الصحراء للوائح.

احتجّ «مسّي» من دنيا غيبته:

– تخطئ! في الصحراء لوائح أشدّ صرامة من لوائح العمران، ولكن سرّها في أنّها لوائح أُمّنا الطبيعة وليست لوائح أخينا الإنسان!

– أيعني هذا أن لوائح الطبيعة أرحم على الإنسان من لوائح ابتكرها الإنسان ضدّ أخيه الإنسان؟

– بالطبع؟

انتصب بينهما الصمت من جديد. جلسا متجاورين على أريكة انتظارهما الأبدي، يرقبان وجوم أعضاء المحفل، ويبتسمان بسخرية لعناء القادمين الجدد وهم يتناكبون

ويعاندون للوصول إلى الحاجز.

قال موسى:

– ولكن الحكمة تقضي ألا نستهين ببصيص النور حتّى لو انبعث من شِقّ.

– بصيص النور؟

– أعني خيار الطعن!

سكت. تطلّع إلى قرين الانتظار. أضاف:

– أعرف داهيةً لم يَحْدُث أن ترافع لمصلحة إنسان إلاّ وبُرِّئت ساحته، كما لم يَحْدُث أن ترافع ضدّ إنسان إلاّ وأُدين.

ابتسم في وجهه «مسّي». قال بغموض:

– هل تظنّ أن ما تبقّى من عمر يكفي لكسب الجولة؟

15

في مقرّ داهية القوانين قرأ «مسّي» العبارة المثبّتة على الجدار بحروف بارزة، والتي شاء لها الداهية أن تكون له في عمله لا الشعار فحسب، ولكن وصيّة الوصايا:

«لا مكان بيننا لمن لم يؤمن بأن القوانين لم توجد إلاّ لتكون تلك الأحبولة المثيلة لبيت العنكبوت، حيث يتورّط الضعفاء، في حين يفلت الأقوياء»!

ويبدو أن الداهية آمن بكلّ حرف في شعاره هذا، لأنّه أخذه من يده ما إن دخل عليه برفقة موسى ليقول له:

– هل تدري ما معنى هذه العبارة حقّاً؟

لم ينتظر منه جواباً بالطبع، ولكنه أخذ على عاتقه الإجابة عن السؤال بنفسه:

– هذا يعني أن القوانين تستطيع أن تجيز كلّ شيء، كما تستطيع ألا تجيز أيّ شيء!

حدّق في عينيه بمقلتين صارمتين كحدقتي صقر، ثمّ تساءل مرّة أخرى:

– هل تدري ماذا تعني هذه الأحجية أيضاً؟

ابتسم بخبث قبل أن يجيب عن سؤاله:

– هذا يعني أن كلّ شيء مباح في عرف القوانين، كما يعني

أن القوانين لا تبيح أيّ شيء أيضاً!

حَكّ بسبابته أنفه المعقوف (الذي يبدو مكسوراً من شدّة العقفة)، قبل أن يضيف:

- هذا يعني باختصار أشدّ أنْ لا وجود، في الحقيقة، لقوانين!

تضاحك ساخراً قبل أن يعيده ليجلسه على الكرسي قائلاً:

- ولكن ليس على المستجيرين بالقوانين أن ييأسوا من القوانين، لأنّهم في الحقيقة لايستجيرون بالقوانين عندما يحتكمون إلى ساحة القوانين، ولكنّهم يستجيرون بنا نحن!

جلس إلى مكتبه بعد أن أودعه مقعده، ثمّ أضاف وهو يفتعل مرحاً:

- بلى! لا أكابر عندما أقول إنّ القوانين هي مجرّد أسد ميّت إذا قورنت بالكلاب التي تحرس القوانين التي نمثّلها نحن.

تألّق في مقلته المكر وهو يستنتج في مرافعته العابرة:

- والكلب على قيد الحياة أفضل من أسد في عداد الأموات، كما تقول العامّة!

تفحّصه «مسّي»، بفضول: كان رجلاً طويل القامة، أسمر البشرة، ذكي البصر، معقوف الأنف، متدلّي الشفتين على نحوٍ ذكّره بشفتي بعير، مع بروزٍ طاغٍ للذقن، برأسٍ عارٍ من الشعر.

سحنة مثيرة شبيهة بسحنات كهنة عصور ما قبل التاريخ التي وجدها محفورة في جدران الكهوف زمن التّيه في الصحراء.

قال «مسّي»:

– ما أفهمه هو أنّك لا تريد أن تَعِدَ بشيء!

– ما أردت أن أقوله هو أن الطّعن مخاطرة في كلّ الأحوال، ما ظلّ فلاحها وإخفاقها معتمداً على مزاج القوانين.

– مخاطرة؟

– ليس مخاطرةً فحسب، ولكنه بالأصحّ، مغامرة!

– ماذا يمكن أن يعنيه هذا؟

– هذا يمكن أن يعني أن الطّعن يمكن أن ينقلب طعنة في قلبك!

لغة هذا الكاهن الخارج لتوّه من ظلمات القرون أدهشت «مسّي». ولكن قسوتها استهوته أيضاً، فتمتم:

– طعنة في قلبي..

– لكلّ فعل ردّة فعل، وكما نلجأ إلى ساحة القوانين لنتخذها حيلة لإدانة الأغيار، يستطيع هؤلاء الأغيار أن يستخدموا السّلاح نفسه لإدانتنا!

تطلّع إليه بإمعان قبل أن يمرّر سبّابته على أنفه المهيب

ليضيف:

– يجب أن تتذكّر أنّك ستدخل ساحة القضاء بقلبٍ عارٍ، وهو ما من شأنه أن يضاعف فرص الخصم في نيلك بالطعنات!

– هل هذا تحذير؟

– واجب المهنة يستوجب الوضوح بطرح كافّة الاحتمالات، حتّى لا نفاجأ في مسيرتنا بما لا تُحمد عقباه!

دَعَك أرنبة الأنف بطرف سبّابته، ثمّ استلقى إلى الوراء ليتطلّع إلى السقف كأنّه يطارد نبوءة. سأل «مسّي»:

– أريدك أن تصدقني القول: كم نسبة النجاح بالضبط لكسب الجولة في هذه المهزلة؟

رمقه الداهية بمقلتين شقيّتين قبل أن يجيب:

– هذا يعتمد على عوامل كثيرة ليس بالوسع الاطمئنان إلى أحدٍ منها قبل الإجابة عن سؤالٍ يبدو بسيطاً وهو: «من أنت؟».

– ما معنى «من أنت» هذه؟

أجاب الكاهن بحياد أثار إعجاب «مسّي»:

– الصّيت!

– تقصد..

– أقصد أن وجود الصّيت قد يرفع نسبة التوفيق من واحد في المئة، ليجعلها تسعاً وتسعين في المئة بقدرة قادر، في

حين بوسع غياب الصّيت أن يقلب الميزان رأساً على عقب، فيهوي بفرصة نجاح التسعة والتسعين في المئة إلى حضيض الواحد في المئة!

انفعل «مسّي»:

– ولكن هل تحتاج الحقيقة العارية إلى كلّ هذه التدابير كي تنال منّا اعترافاً؟

– في عُرف القوانين لا وجود لحقيقة عارية!

– مهما تبدّت للعيان عاريةً؟

– مهما تبدّت عاريةً!

– ألن يعني هذا تزويراً متعمّداً للحقيقة لكي تنقلب أكذوبةً؟

سكت الداهية. في عينيه لمع إيماء خبيث. قال غائباً:

– يحدث هذا غالباً بسبب طبيعة الحقيقة التي لا تخفى على أحد.

– طبيعة الحقيقة؟

– لا يجب أَنْ ننسى أن للحقيقة طبيعةً متحوّلةً!

– للحقيقة طبيعة متحوّلة؟

– ما آمن به أسلافنا القدماء كحقيقة مطلقة، انقلب مع الأيام بهتاناً، وما نؤمن به نحن اليوم حقيقة عارية سوف يثير سخرية الأخلاف بعد ألف عام. عنصر الزمان، كما ترى،

لا يهرع لنجدة الحقيقة!

تبادلا نظرةً طويلةً قبل أن يلتفت «مسّي» إلى رفيقه موسى كأنّه يستطلعه رأيه. ولكن موسى اكتفى بابتسامة غامضة، ثمّ أسبل جفنيه ليستجير بالحضيض. لحظتها قرّر «مسّي» أن يستبدل العبارةَ بالإشارة:

– أريدك بكلمة أخيرة أن تَصْدُق رجلاً لا يملك في هذه الدنيا ذرّة صيت، ولا يعوِّل إلاّ على سلطان المنطق، ولا يريد من المَبارزة إلاّ أن يستعيد اسماً!

حكَّ الرجل أنفه المعقوف بطرف سبّابته لحظات هذه المرّة. تململ في جلسته قبل أن يعلن باسماً:

– لا أريد أن أطعمك أوهاماً كما يفعل الكثيرون في مهنتنا هذه، ولكنّ اليقين أن فرصة التوفيق في قضيتك لن تزيد على الخمسين في المئة مهما استنجدت بالمنطق، ومهما استجرْتَ بما تسمّيه الحقيقة العارية. أمّا نسبة الإخفاق فلن تقل عن الخمسين في المئة أيضاً. أي أن الفرصة متساوية، كما ترى، مثلها مثل كلّ مغامرة!

أنصت «مسّي» بإمعان. في عينيه تألّق إيماء كالتردّد. أضاف الداهية:

– كان بإمكان حظّك في النجاح أن يرتفع إلى التسعين في

المئة لو لم يكن خصمك في المغامرة لجنة!

استولى على «مسّي» الذهول. تعجّب:

– هل تحرّم القوانين الاحتكام إلى ساحتها لاسترجاع حقٍّ مغتصبٍ من لجنة؟

ابتسم الداهية بخبث. رشق أنفه بطرف سبّابته قبل أن يقول:

– أنت تنسى سيرة الصّيت. نصيب اللجنة من هذه العملة أوفر من أن يقبل التحدّي، سيّما من خصمٍ عارٍ كليّاً من هذا الكنز! الصّيت، في اللعبة، قوّة حاسمة، لأنّه الوجه الآخر لما تسمّيه العامّة سلطةً!

فَزَّ الرجل من مقعده فجأة. مال نحو جليسه حتّى كاد ينطحه بأنفه المهيب. حشرج بوعيد:

– هذا التحدّي لا يقلّل من حظّك في كسب الجولة فحسب، ولكنه قد يلقي بك إلى غياهب السجن، وربّما وجدت نفسك مطوّقاً بحبل مشنقة!

هبّ «مسّي» أيضاً ليجد نفسه في مواجهة الرجل. ظلاّ متلاحمين كعدوّين لحظات قبل أن يضيف الداهية:

– التشكيك في قرارٍ صادر من لجنة مخوّلة، في نظر القوانين، جريمة تعرّض لقصاص القوانين!

سكت. تلاحقت أنفاسه. أكمل:

– خطورة اللعبة، كما ترى، في طبيعتها كسلاح بحدّين اثنين!

غمغم «مسّي» في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه:

– لو كانت القوانين ترى في الاحتكام إلى ساحتها طلباً لأبسط حقّ، فلماذا تقرُّ مبدأ الطعن؟

– القوانين ربٌّ يقف على الحياد دائماً. وهي لا تضع نصب عينيها إلاّ الحرف عندما تقرّ مبادئها لا لتأخذ بيد المظلومين، ولكن لتتيح الفرصة لأصحاب الصّيت. أعني لأولئك الذين يملكون فرصة الإفلات من شرك العنكبوت. الصّيت هو المؤهّل المعتمد في ناموس القوانين، لأنّها، في مقابل القانون الأخلاقي، لا أخلاقيّة!

هتف «مسّي»:

– تقول لا أخلاقيّة في مقابل القانون الأخلاقي؟

– في مقابل الناموس الإلهيّ!

هيمن صمت تبادل فيه الرجال الثلاثة النظرات. بعدها وضع الداهية آخر لمسة في مرافعته القاسية:

– الحقّ أقول لك: لا أمل لمظلوم في نَيْل حقٍّ مغتصبٍ ما لم تتنازل البشريّة عن كبريائها الزائفة، لتلقي بالقوانين

الـوضـعيّـة في صـنـاديـق الـقـمـامـة؛ لـتـذهـب لاعـتـمـاد الـقـانـون الأخـلاقـيّ وحـدَهُ!

16

تضعضع الوضع، بعد أن أوصد الحانوت أبوابه، فخلا الوفاض. طاف السبل بحثاً عن عمل، ولكن أرباب أحطّ الأعمال شأناً طلب إبراز الهوية ففقد الأمل. احتجب في ركنٍ بالبيت كما احتجب خليفته في ركن آخر قبله. توارى عن الأنظار كما يليق بإنسانٍ غريبٍ، لأن المنفى ليس أن يغترب الإنسان عن المكان، ولكنّ المنفى الأكثر جدارةً بلقب المنفى هو أن يغترب الإنسان عن نفسه، أن يفقد الإنسان اسمه. دفن «مسّي» نفسه في قعر البيت ليكون له البيت قبراً، تماماً كما دفن «يوجرتن» نفسه في قاع البيت لتكون له العزلة قبراً. خالط الوريث، في السنوات الأولى، صبية الجوار، ولكنه بدأ مسيرة الانطواء على نفسه عقب تعثّر جهود الالتحاق بالمدرسة. الحظر على دخول المدرسة أيقظ في نفوس أقرانه الصغار الشقاوات المكبوتة؛ فتباروا لإهانته بالألقاب المنحطّة (المستعارة بالطبع من معاجم ذويهم)، لينتهي بهم المطاف أخيراً إلى نعته بلقب «اللقيط» إمعاناً في الإذلال. ثمّ تمادوا، بسبب غياب الردع، فرجموه بالحجارة إرواءً لذلك الظمأ الآثم إلى التسلّط الذي يتجلّى مبكّراً في كلّ طفولة.

أمّا أهل الصغار فلم يتسامحوا مع شقاوات أولادهم

فحسب، ولكنّهم حمّلوه هو، كأبٍ، وزرَ هذه السابقة. قرأ هذه الرسالة في نظراتهم في البدايات، ثمّ قرأها في تصرّفاتهم، ثمّ في تلميحاتهم، ولكنّهم لم يجسروا أبداً على استبدال العبارة بالإشارة، دون أن يدرك يقيناً عمّا إذا كان ذلك بسبب جبنهم، أم بسبب زيفهم، أم بسبب ميلهم إلى الخيانة، أم لهذه الأسباب مجتمعة. لقد استعاروا أقنعة لا تختلف عن الأقنعة التي تخفّى وراءها جيش المحفل في السجلّ المدني، ليعفوا أنفسهم من المواجهة.

وهي سياسة تتسلّح بسلسلة من المراحل تبدأ، في العادة، بنظرات الحذر، ثمّ تتطوّر بمرور الأيام لتتحوّل شكوكاً، فإن لم تقنع بحجج البراءة المقدَّمة، تنقلب لتستنزل على نفسها قناعاً شنيعاً هو الاتهام الصريح، على رغم أنّه بلا حيثيات. فإن لم تعترضها الحجج، تحوّلت إلى الإدانة. إدانة خفيّة بالطبع، لأن ملّة هؤلاء أجبن من أن تعلن إدانة بصريح العبارة؛ لأن ذلك يستوجب التعرّي من القناع. والقناع هنا يلعب دور الترس الذي يحتمي خلفه صاحب الإدانة المجانيّة هذه. بعد الإدانة يحوم صاحب الإدانة حول الخصم، كما تحوم الوحوش حول الضحيّة قبل الانقضاض عليها. فإذا استشعر اطمئناناً تشجّع لاستصدار الحكم. لايستصدر الحكم صراحةً بالطبع، ولكن

إيماءً أيضاً. بعدها ينتظر. يلتفت حوله خوفاً من قصاص ٍمّا قبل أن يقدم على الخطوة التالية وهي: العداوة. فإن لم تعترض سبيله عقبة في هذه المرّة أيضاً، فإنّه لا يلبث أن يجاهر بالعداوة. بل لا يلبث أن يتباهى بهذه العداوة. لا يفعل ذلك علناً بطبيعة الحال، ولكنه يفعل ذلك إيحاءً. وهو يتفنّن في التعبير بهذا الإيحاء تفنناً يفوق في تأثيره لغة العبارة. ثمّ.. ثمّ ينتظر. ينتظر ردود الفعل، فإن لم يُجابَه بردع ٍمّا، أُصيب بمسّ. يعبّرُ عن هذا المسّ بالسير في الشوارع معلناً حدوث خللٍ رهيبٍ في الكون. يعبّرٌ إيماءً، فإن لم يُفْهم، عبَّر همساً هذه المرّة. فإن لم يجد آذاناً صاغية تجاسر ليعلن الخبر بأعلى صوت. يشير إلى الخصم (الذي لم يكن له يوماً خصماً بالطبع)، بالبنان منبّهاً لوجود الخطر، داعياً الملأ للقيام بتطهير البلد من الخونة وأذناب العمالة! فإن لم يجد آذاناً صاغية، انبرى يتهم السلطات بالتقاعس في أداء واجبها المقدّس في حماية المقدّسات. ولكن سخط أمثال هذه الأشباح لايتوقّف عند حدّ العداوة، ولكنه يستبدل أسلحته ليطلق النار على الخصوم من فُوَّهةٍ أخرى هي الاحتقار، لأن الاحتقار وحده يستطيع أن يحوّل هؤلاء الأبرياء إلى سلالة منبوذة. النّبذ هو المرحلة الأخيرة في سلّم الاضطهاد المجانيّ الذي تلجأ إليه تلك الفئة

التي تلجأ إلى تحريض السلطات، تطوّعاً، ما إن تشتمّ في الأفق رائحة إنسانٍ وقع في محنة خفيّة، أو ذات طبيعة مشبوهة، كأنّهم يسعون من وراء هذه الأفعال لنفي الشبهة عن أنفسهم هم. كأنّهم يريدون أن يثبتوا براءتهم هم من تهمة وهميّة لم تُوجَّه إليهم، فلا يجدون وسيلة لإثبات هذه البراءة إلاّ إدانة أولئك الخصوم الذين لم يكونوا لهم يوماً خصوماً، لا لشيء إلاّ لأنّ هذا المسلك المجبول بروح العبودية، هو شهادة البراءة التي تثبت الانتماء إلى مجتمع العمران الذي يتخذ من التنكيل بالأبرياء مهنةً، كما يملي ناموس أيّ مجتمع عبودي!

17

اليوم تلقّى «مسّي» صفعة جديدة جزاء حسن ظنّه بالأيام. فقد استجار بيأسه ظنّاً منه أن الكابوس الذي عاشه في الأعوام الماضية هو خاتمة البلايا، ولم يتوقّع يوماً أن يكون للبلايا استهلالٌ تجلّى، أوّل ما تجلّى، في القبض على «يوجرتن» وإيداعه المعتقل.

حدث ذلك في صباح أحد الأيام عندما اُضْطُرَّ وليّ العهد للخروج إلى الشارع لشراء رغيف الخبز. في الطريق اعترضه أحد الأشقياء بالاستفزاز، فنشب بينهما شجار انتهى بهما إلى مركز الشرطة. في المحضر طلب ضابط الاختصاص إبراز الهويّة، وبدل أن يتعلّل الأبله بوجودها قيد التجديد، أو باستبقائها في البيت، كسباً للوقت، كما فعل خصمه اللئيم، اعترف بعدم حصوله على الهويّة لأسباب، على حدّ قوله، غبيّة. وهي عبارة كفيلة باستثارة خليفة السلطات على الأرض. لم يكتف «يوجرتن»، بهذا النعت القبيح، ولكنه ارتكب خطيئة أخرى عندما قال في سياق الاستجواب إن المواطن الحقيقي ليس في حاجة إلى امتلاك هويّة إثبات، لا لأنّه لا يشكّ في انتمائه إلى الوطن فحسب، ولكن لأنّه يحتقر كفالة يثبتها ذلك القرطاس التافه الذي لا يتسابق للحصول عليه إلاّ

أولئك الذين يشكُّون في انتمائهم إلى الوطن حقّاً، لأنّهم لم يعترفوا به وطناً أصلاً إلاّ يوم ضاقت به الثروات!

كان ذلك التصريح تلميحاً إلى خصمه في الشجار الذي أَلَّبَ عليه خليفة السلطات عندما نعته بكلمة عُدّت جريمة في معجم الجهات الأمنية وهي «متسلّل»، فقرّر أن يدافع عن نفسه بتلك العبارة إشارةً إلى لهجة الخصم التي تبرهن على انتمائه إلى سلالات المغتربين العائدين من بلدٍ مجاورٍ.

ولكن ضابط المحضر لم يقتنع بالطبع، لأنّه ليس مخوّلاً بالإنصات إلى منطق اللسان (على رغم يقينه بأن هذه العضلة ليست سوى الإنسان نفسه)، ولكنّه مجبر على تكذيب أي منطق في مقابل انتزاع الهوية المدوَّنة في قرطاس، لا لأنّها شهادة إثبات عليه أن يصدّقها، ولكن لأنّها وثيقة مستخرجة من حصون السّجلّ المدني. وهو ما يعني أنّها غير مشكوك في أمرها، بل ويجب الاعتراف بها حتّى لو لم يقتنع بحقيقتها، لسبب بسيط وهو أنّها ممنوحة من قبل السلطات المختصّة، أي أنّها ممنوحة، بطريقة أو بأخرى، منه هو كخليفة للسلطات، وراعٍ، بصلاحيات مطلقة، لمصير القانون في الأرض.

وعلى رغم ذلك، فإنّ صاحب الشُّرَط تحلّى بروح تسامحٍ لا تُنكر إزاء تصريحات المعتقل، مُرجعاً السّبب إلى الطيش كرذيلةٍ

ملازمةِ لأصحاب هذه المرحلة من العمر، ولكنه لم يستطع أن يتسامح إلى ما لا نهاية فيغفر عبارة (اعتبرها وقاحة) وردت على لسان الغرّ تقول: «البريء وحده لا يحتاج في هذه الدنيا إلى شهادة براءة»، فما كان منه إلاّ أن أمر بإطلاق سراح صاحب الاغتراب، وأمر بالمقابل إيداع صاحب الوقاحة غياهب المعتقل بتهمة التسلّل!

أما «مسّي» فقد استبطأ عودة الولد فخرج إلى السوق في طلبه. هناك حدّثه صاحب المخبز بالمشاجرة فذهب إلى مخفر الشرطة. انتظر طويلاً قبل أن يأذن له الشرطي بالدخول على رئيس المخفر. كان رجلاً وسيماً، مريح السيماء، يبدو بقامته الطويلة، ببدلته الرسميّة، مثل فارس نبيل.

استقبله ببشاشة صديق قديم، وأجلسه على أريكة مقابل مكتبه، قبل أن يستدعي الشرطي المناوب ليأمر له بفنجان قهوة. عاد ليجلس إلى مكتبه ليتطلّع إليه بفضول متوّج بابتسامة قبل أن يقول:

– لا أريد أن أسيء بك الظنّ فأحمّلك وزر كلّ ما سمعته من نجلك الشقيّ!

استفهم «مسّي» بإيماءة، فأوضح رئيس المخفر:

– في عرفنا، لسان الأبناء دائماً ترجمان لنوايا الآباء!

- لسان الأبناء ترجمان لنوايا الآباء؟

- إذا شئت أن تعرف ما يخفيه عنك جارك فاستنطق ابنه! هذه هي القاعدة.

ابتسم «مسّي». قال:

- ليس لديّ ما أخفيه حتّى تجده مترجماً على لسان ابني.

- كلّنا لدينا ما نخفي!

تردّد «مسّي». فَرَك يديه. كانت بسمته البلهاء تستثير فيه خجلاً مجهولاً عندما حاول أن يخفيه بالقول:

- أجل! هناك الخطيئة التي نحاول دوماً أن نخفيها حتّى عن أنفسنا، لأنّ طعمها المهين يفقدنا الرغبة في الحياة.

حدَّق فيه رئيس المخفر بإمعان. تشبّث بحافة المنضدة بكلْتا يديه في حركة عفوية قبل أن يقول:

- أنت تتحدّث عن نوايا أخرى ذات صلة بالضمير، ولكنّي أتحدّث عن نوايا الإنسان ضدّ أخيه الإنسان. إنّها دائماً جنس من مكيدة!

- لا أخفي أيّ مكيدة ضدّ أحد.

- تقول إنّك لا تخفي مكيدة ضدّ أحد، في حين تخفي في بيتك مخلوقاً بلا هويّة، وهو ما يعني أنّها مكيدة ضدّ القانون، بل ومكيدة ضدّ الكلّ!

سكت «مسّي» لحظات. تلاشت بسمة الحياء لتحلّ في سيمائه بسمة ازدراء:

– تلك مكيدة لا ذنب لي فيها!

رئيس المخفر تنازل عن بسمته المجانيّة ليُسْدل على وجهه ذلك القناع القبيح الذي كرهه «مسّي» في سيماء أولياء أمر هذه الدنيا. قال:

– لا تكتفِي بأن تخفي في بيتك مخلوقاً مجرّداً من هويّة إثبات، ولكنّك تخفي هناك نفسَكَ أيضاً، حسب اعتراف ابنك!

– أخفي نفسي؟

– تخفي نفسك بالطبع عن عيون القانون ما دمت لا تستطيع أن تثبت للمجتمع من أنت!

تمتم «مسّي»:

– هذه سيرة طويلة جدّاً..

– سيرة طويلة عليك يقع وزر وضع حدٍّ لها!

– فعلتُ كلَّ ما بوسعي..

– من وجهة نظر قانونيّة أنت لم تحرّك ساكناً مادمت لم تعمل ما من شأنه أن تعيد به اعتبارك واعتبار ولدك!

– أكون لك شاكراً لو أخبرتني ماذا يمكنني أن أفعل أكثر ممّا فعلت!

ضحك رئيس المخفر باستهزاء. قال ساخراً:

– إسداء النصح في أمرٍ يتعلّق بمخالفة القوانين عمل خيريّ لا يدخل ضمن اختصاصاتي، كما قد تعلم!

دخل الشرطي حاملاً فنجان القهوة. وضعه أمام «مسّي» وهو يختلس إليه نظرة شكّ قبل أن يستدير لينصرف. زفر «مسّي» بعمق ولكنّه لم يتناول القهوة. قال:

– يحزنني أن أُتّهم بالتسلّل إلى وطني لمجرّد أن خطأً وقع جرّدني من أوراقي الثبوتيّة!

– أهل الحكمة يقولون إنّنا في بلادنا أصحاب ذنب شئنا أم أبينا.

– ذنبي الوحيد أنّي نزلت المدينة!

هلّل رئيس المخفر:

– مرحى! مرحى! ها أنت تعترف بما يجب أن تعترف به لنفسك قبل أيّ أحدٍ آخر!

– ماذا يريد السيّد المبجّل أن يقول؟

– أردت أن أقول إن أهل المدن يجب أن يحيوا وراء جدران مدنهم، وأهل الصحراء يجب أن يبقوا في ربوع صحرائهم!

– ما أيسر أن يقول السيّد المبجّل هذا وهو يجلس وراء مكتبه هذا!

– ماذا تعني؟

سكت «مسّي». أطلق تنهيدة وجع، ثمّ أجاب:

– لم نهجر الصحراء لنستبدل بها مدنَكم إلاّ بعد أن انقطعت منها شآبيب الرحمة، والسّبب هو أنتم!

استنكر رئيس المخفر:

– السّبب هو نحن؟

سكت «مسّي». رمق فنجان القهوة وهو يلفظ أبخرته. أجاب:

– كانت الصحراء فردوساً إلى أن جاء اليوم الذي غزوتموها بالآلات الجهنمية لتقضوا بأسلحتكم الشيطانيّة على قطعان الغزلان. وعندما انتهيتم من قبائل الغزلان تولّيتم أمر قبيلة أخرى من قبائل الصحراء كانت تستجير من بطشكم برؤوس الجبال وهي الودّان. احتلتم عليها أيضاً يوم استقدمتم آلاتٍ ألعنَ مفعولاً؛ لأنّها تطير في الهواء فلا يمتنع عليها مانع لا في أرضٍ ولا في سماء، تمكنتم بعونها من القضاء على روح الصحراء الثانية هذه بعد أن حصدتم في السبيل إليها كلّ ما اعترضكم ولم يعترضكم من أنواع الطير. فهل اكتفيتم؟ كلاّ بالطبع. فالإنسان الذي يقتل لا ليسدّ الرمق، كما يفعل أهل الصحراء، ولكنّه يقتل من فرط الشّبع، أو فلنقل من باب التسلية كما تفعلون أنتم، لن يشبعه شيء، ولن يقف في طريقه

شيء إلاّ ليعرّضه للفناء. فها أنتم تستبيحون باطن الأرض بعد أن أَبَدْتُمْ ظاهرَها. استخرجتم الكمأ المقدّس من جوف الصحراء في حملات منتظمة لا لتغرقوا به أسواقنا، ولكن لتبيعوه في أسواق الأغراب. واستدرتم على أعقابكم لتحصدوا نباتات الصحراء وتنتزعوها من جذورها؛ لتنقطع سلالات النبات من الصحراء إلى الأبد، كما انقطعت تلك السلالات النباتية التي أنبتتها هذه الرقعة الأنبل من كلّ بقاع الدّنيا يوماً، لتكون شفاءً للناس من كلّ الأمراض؛ فانقطعت بيد الدخلاء بسبب سوء الاستعمال. فهل اكتفيتم؟ كلاّ بالطبع. فالعثور على الكنز عادةً لا يشبع صاحب اللُّقية، ولكنه يشعل شهوته أكثر من أيّ وقتٍ مضى. فها أنتم تستنزفون مياه هذه الصحراء الجوفيّة التي لم تكن يوماً مجرّد مياه، ولكنّها كانت روح هذا الوطن الضائع، فذهبتم بهذه الروح لترووا بها بساتينكم البائسة لا لتنبتوا بها زرعاً، ولكن لتسقوا بها العشب الضار الذي تتخذونه سجّاداً تحيطون به بيوتكم الريفية لتتباهوا بمنظره أمام الأغيار. فهل اكتفيتم؟ كلاّ بالطبع. ولكنكم ذهبتم لتستولوا على دم الأرض بعد أن أهدرتم روح الأرض. بعتم أمّكم الصحراويّة هذه في المزاد العلني ليشتري الأغراب حقّ اغتصاب رحمها، ليُسْتَخْرَج من هذا الرحم تلك

الأجنّة السحريّة التي تبدو لأوّل وهلة غنيمةً لقدرتها على توليد نعمة ربوبيّة هي النور، ولكنّها تخفي قصاصاً بسوء الاستعمال فتخنق الدنيا انتقاماً. فهل اكتفيتم أخيراً يا ترى؟ كلاّ بالطبع. لم يكن لكم أن تكتفوا لأنّكم بحثتم في أرباعها عن كنزٍ جديدٍ أبى سخاء هذه الأرض إلاّ أن يهبه لكم أيضاً، لأنّها اعتادت أن تهب بلا حدود كما اعتدتم أنتم أن تطلبوا بلا حدود، لا لتلقّنكم درساً في السخاء، كما قد يتخيّل البلهاء، ولكن استجابةً لنيّةٍ صادقةٍ في أن تجد لدائكم ترياقاً مّا. وهبتكم وسوسة أسلافكم القدماء التي تركوها بصمةً مذهلةً على جدران كهوفها يوم كان الإنسان يبحث جاهداً، بهذه الوسوسة المقدّسة، عن الله! فماذا فعلتم أنتم بهذه التمائم الإلهيّة؟ لقد استنسختموها استنساخاً قضى عليها. أمّا المحفورة في الصّلد حفراً؛ فقد استقطعتموها من الصّلد لا لتحتلّ موقعاً في متاحفكم، ولكن لتبيعوها للدخلاء بثمنٍ بخسٍ، دون أن يخطر ببالكم أنكم لا تبيعون وسماً مزبوراً في حجر، كما تظنّون، ولكنّكم تبيعون شرفكم ببيع وصايا أسلافكم. فهل تريدوننا أن نَغْرب عن وجوهكم اليوم، ونترك لكم مدنكم، بعد أن استنزلتم اللّعنة على الصحراء، فبخلت برحمتها علينا أخذاً لنا بذنوبكم أنتم؟

سكت «مسّي». كان يلهث من فرط الانفعال. في عينيه تلألأ بلل كوميض الضوء. بعد لحظة رأى رئيس المخفر كيف سقطت دمعة من عين «مسّي» في فنجان القهوة!

18

اليوم طرق بابَ داره جارُهُ القديم ليحمل له نصيحةً بعدم الخروج إلى الناس. أضاف قائلاً: إن الشائعات تتحدّث هذه الأيام عن قرب ميعاد الترحيل. لم يفهم «مسّي»؛ فأضاف الجار:

– يُقال إن كلّ المشبوهين سوف يحشرون في معسكر أُعِدَّ خصيصاً لِهذا الغرض تمهيداً لترحيلهم إلى أوطانهم التي جاؤوا منها!

كان الجار رجلاً عجوزاً عرفه منذ انتقل للسكن في هذا الشارع، يقيم وحيداً في الزقاق المواجه لبيته بعد أن فقد ابنته الوحيدة في حادث مرور منذ سنوات، يملك دكاناً لبيع الخضار يقع بالقرب من الشارع الرئيس المجاور للحيّ. ويُروى أنّه سليل أحد الوجهاء في إحدى القرى التي لا تبعد عن المدينة مسافةً طويلةً، ولكنه فرّ من بيت الأب بسبب فضيحة أخلاقية مجهولة التفاصيل، ولم يعد إلى الوراء أبداً. في المدينة التحق بمعهد للصناعات اليدوية، ولكنّه هجر المعهد بعد الالتحاق بشهور لأسباب مجهولة أيضاً، ليقترن بفتاة التقطها من مؤسسة لرعاية الأيتام أنجب منها طفلة قبل أن يفقدها بعد سنوات قليلة. ولكن اللّعنة التي لاحقته من مسقط رأسه في

الريف أَبَتْ إلاّ أن تجرّده من ابنته أيضاً بعد سنوات تركت له فيها حفيداً وحيداً. ويبدو أن المعلّم الأوّل المسمّى في معجم الحكمة وجعاً، هو الذي طهّره ليكون الإنسان الوحيد (من بين كلّ الجيران) الذي تعاطف مع «مسَي» في محنته منذ أوّل يوم، على رغم سيماء الصّرامة التي لم يتنازل عنها يوماً حتّى صارت له طبيعة في تكوين ملامح الوجه.

في ذلك اليوم الذي وقف فيه أمام الجار تلبيةً لنداء الواجب نحو الجار، رأى «مسّي» في عينيه طفولةً إلى جانب الصّرامة التي صارت له مع الأيام طبيعةً ثانيةً، فاستشعر نحوه ذلك الإكبار المجبول بالقداسة الذي لا بدّ أن يستشعره صاحب البراءة الذي لم يَعْتَدْ من الناس إلاّ الإنكار القاسي المسربل بأنصال الإدانة المسبقة. ولكنّه، على رغم ذلك، لم يجد ما يعبّر به عن امتنانه سوى عبارة مبتسرة:

– لا وطن آخر لي يمكن ترحيلي إليه، اللّهم إلاّ إذا قرّرت السلطات إعادة ترسيم الحدود لفصل المدينة عن الصحراء!

هَزّ العجوز رأسه أسفاً قبل أن يقول:

– كان الأمر سيهون كثيراً لو كان بيد السلطات!

سأل «مسَي» بدهشة:

– بيد مَنْ يمكن أن يكون الأمر إن لم يكن بيد السلطات؟

تطلع العجوز إليه بنظرته الطفوليّة الشقيّة قبل أن يجيب:
– لا أعرف كيف لم تستنتج حتّى الآن أن الأمر في هذه الأنحاء لم يكن بيد السلطات يوماً، ولكنّه..
سكت. تردّد. لوَّحَ بيده في الهواء استهانة قبل أن يكمل:
– بيد الأشباح!
تفحصه «مسّي» بدهشة، ولكن الزائر أشاح بوجهه جانباً، فتكلّم «مسّي»:
– لا أخالك جادّاً عندما تقول إن الأمر بيد الأشباح!
ابتسم في وجه العجوز بمرارة قبل أن يلحظ كيف شوّه إيماء الوجع سيماء الشيخ الذي تململ في وقفته قبل أن يقول:
– هل يُعقل أن يُجرّد الإنسان من اسمه لو لم تكن الأرواح الخفيّة هي التي تدير شؤون هذه المدينة؟
سكت «مسّي». قال:
– ظننت أنّي فهمت حقّ الفهم ما راق لعقلاء الصحراء أن يلقّنوه لنا عندما قالوا إن نزول الروح الكريمة إلى الدنيا وقوع في الشَّرَك، ولكنّي لم أتخيّل أن تبلغ عبقريّة الروح الخفيّة حدّاً تجرِّد فيه الإنسان من اسمه الذي شاء له الخالق أن يخلفه حتّى بعد موته!
عاد الشيخ يهزّ رأسه أسىً. أشاح بوجهه جانباً كأنّه

يستحي من قول ما يريد أن يقول:

– الخالق شاء للاسم أن يخلف المخلوق بعد موته، ولكنّ الأشباح الخفيّة شاءت أن تجرّد المخلوق من اسمه وهو لايزال حيّاً يُرْزق!

– ألاَ يعني هذا تجديفاً في حقّ ربّ السماوات والأرض؟

– أهل الإيمان يسمّون هذا كبيرة الكبائر!

سكت «مسّي» فأضاف العجوز:

– الأشباح وحدها تتولّى أمر الناس من وراء حجاب!

دبَّ «مسّي»، في المكان. عاد ليواجه جاره العجوز. ارتجف ذقنه بشدّة قبل أن يقول:

– أيرضيك أن أقبع كالجرذ في هذا الجُحر في وقتٍ يتنقّل فيه ابني الوحيد من معتقل إلى معسكر اعتقال؟

تأمّله العجوز بتصبّر. تساءل:

– هل يستطيع مَنْ لا يحسن السّباحة أن ينقذ غريقاً بالارتماء في أحضان الغريق؟!

سكت «مسّي»، فأضاف الشيخ:

– كان أسلافك في الصحراء ينقذون الواحات من الغزاة بالدفاع عنها من خارجها في العراء، لا بتحصّنهم وراء أسوارها!

هَمّ «مسّي»، بأن يحاجج، ولكنّ الجار قاطعه وهو يهمّ بالخروج:

– الوصيّة تقول: الإنسان يستطيع ما ظَلَّ طليقاً!

19

لم يَخِبْ ظنّ «مسّي» بصواب وصيّة الجار.

بوجوده خارج القضبان استطاع، بوساطة موسى، أن يلتقي أحد الأكابر ليقنعه بالتدخّل لتحرير «يوجرتن» من المعتقل، قبل أن يقع في براثن معسكر اعتقال المتسلّلين.

أفلت الخليفة أخيراً، ولكن ليس من دون ثمن؛ لأنّ صاحب الاستكبار لم يتدخّل لإنقاذ الولد من الترحيل، إلاّ بعد أن أقنع «مسّي» بالعمل في شركة استكشاف النفط (التي يعمل وكيلاً لها في البلاد)، كخبير في المتاهات الصحراوية. وكيل شركة الاستكشاف لم يَفُتْهُ أن يدفع بحجّة إقناع أخيرة كي يستدرجه لإتمام الصفقة:

– بالعمل كدليل صحراوي لشركتنا، أنت لن تكسب الحريّة لولدك فحسب، ولكنّك ستضمن الحريّة لنفسك أيضاً. ليس هذا فقط، ولكنّك ستضمن لقمة العيش لك ولولدك بهذا العمل.

لم يتكلّم «مسّي»، فألقى له الرجل بِطُعْمٍ جديدٍ أكثر إغواءً من كلّ الطعوم الّتي سمعها حتّى تلك اللحظة:

– سوف أعدك أيضاً بأن أفعل كلّ ما بوسعي لكي أستعيد لك من السلطات المعنيّة اسمك الضائع!

لم يحترس «مسّي»، إزاء هذه الإغراءات خوفاً من خداعٍ هو

سجيّة كلّ أهل العمران، ولكنّه تردّد خشية القصاص. بلى، بلى. لقد كبّل نفسه يوماً بوعد قطعه على نفسه في حرم الصحراء بألاّ يفعل ما بوسعه أن يُسهم في استباحة هذه الأمّ، بعد أن رأى كيف يقود أبناء الصحراء فلول الدخلاء، ليستكشفوا عورتها الخبيئة، لينتهي بهم المطاف إلى مساعدة هؤلاء السفلة في أن ينتهكوا عرضها ويزنوا بها! بلى، بلى! هؤلاء البلهاء هم من تطوّع لقاء رغيف خبز، أو علبة سردين، أو لفافة تبغ، ليُدْخلوا إلى حرم العراء جيوشَ الطامعين إلى الكنوز الذين لا تشبعهم لُقْية، ولا يروي ظمأهم إلى الامتلاك شيء، ليتسبّبوا في النهاية، في الخراب الذي انتهت إليه. فكيف يحذو حذوهم اليوم ليُدْخِل هؤلاء الزناة إلى محرابها فيدنّسوا بكارتها المقدّسة؟

ويبدو أن وكيل شركة الأغراب هذه لاحظ تردّده، فما كان منه إلاّ أن ألقى إليه بِطُعْمٍ جديد:

– أنت لن تستردّ اسمك الضائع فحسب، ولكنّك سوف تسترجع اسم ولدك أيضاً!

تطلّع إلى جليسه بعينيه العسليتين اللتين أخفق «مسّي» في أن يقرأ فيهما أية رسالة ليضيف:

– بحجرٍ واحدٍ سوف تصيب عدّة عصافير كما ترى!

استنجد «مسّي» بقرينه موسى، ولكنّ القرين تجنّب المواجهة ليفرّ ببصره إلى السقف، فعاد «مسّي» يحوم حول الوعد. قال لنفسه إنّ الوعد ليس مجرّد وعد بينه وبين رقعة أرض، ولكنّه عهد موقّع بينه وبين ربّ السماوات والأرض. والحنث بوعدٍ كهذا ليس خيانةً للوطن فحسب، ولكنّه كفر بالربّ الذي آمنَهُ على الوطن وأنعم عليه بالأرض. فإذا غفر لنفسه خطيئة تعرية الأمّ لينتهك الدخلاء دخيلتها، فهل يطمع في أن يفلت من قصاص ربّ البرِّ؟

تململ في جلسته. من جبينه فَزّ العرق. في يديه سَرَت رجفة. تساءل بعد عناء بيِّن:

– ولكنْ.. ما الذي يضمن لي صدق..

سكت. سكت؛ فهرع الرجل لإنقاذه على الفور:

– صِدْق الصفقة؟ بلى، بلى. نحن نسمّي في لغتنا مثل هذا الاتفاق صفقة. ولكي أبرهن لك على صدق نواياي، لن أطالبك بتوقيع العقد بيننا إلاّ بعد الإفراج عن ابنك!

انكمش «مسّي» في مقعده ما إن سمع الوعد بتحرير خليفة عهده من المعتقل، ولكنّ الداهية لاحقه ببصره بلا رحمة، ولم يدعه إلاّ بعد أن انتزع منه الموافقة إيماءً.

أومأ «مسّي» لوكيل شركة الاستكشافات النفطية في ظهيرة

ذلك اليوم بالموافقة، لأنّ الطمع في تحرير وليّ العهد أنساه العهد، لأنّ الذريّة وحدها تستطيع أن تدفع الآباء إلى خيانة كلّ عهد، بما في ذلك العهد المبرم مع الربّ!

20

قرّر أن يصطحب «يوجرتن» في الرّحلة خوفاً من حدوث ما لا تُحمد عقباه في أثناء غيابه، فما كان من صاحب الاستكبار إلاّ أن بارك قراره، مذكّراً بدوّامة الروتين الإداري الذي يجب التسامح معه في كلّ إجراء يمتّ بصلةٍ إلى جهاز مجيد كدائرة السّجلّ المدني، ثم أضاف قائلاً: «ليس على من انتظر الخلاص أعواماً أن يفقد الصواب إذا اُضْطُرَّ أن ينتظر أيّاماً!».

أمّا حميم المحنة موسى، فقد أقبل عليه قبل السّفر بليلة ليزفّ إليه خبراً قال إنّه بشارة. أخذه من يده وذهب به إلى أحد مطاعم المدينة قائلاً إنه قرّر أن يدعوه لتناول طعام العشاء احتفالاً بالمناسبة، ولكنّه تعمّد أن يخفي عنه النّبأ «إشعالاً لنار الفضول، وإطالةً لعمر المسرّة» على حدّ تعبيره.

كان يتقافز إلى جواره، طوال سيرهما، كطفل فاز بدمية انتظرها طويلاً. يتهادى في سعيه راقصاً حيناً، ضاحكاً حيناً، مثرثراً بصوتٍ عالٍ استرعى انتباه السابلة حيناً آخر. ولم يكفّ عن الصَّبْيَنَة حتّى عندما جلسا في المطعم حول مائدة العشاء؛ فأيقن «مسّي» أنّ الانتشاء أنسى خله المسكين سيرة البشارة الموعودة، فلم يجد مفرّاً من أن يذكّره بها. ساعتها استدرك موسى ليحدّق بعيني صديقه قبل أن يقول:

– كنت أعرف أن موقفك سوف يفتح لكلينا أبواب الخلاص!

هتف «مسّي»:

– لكلينا؟!

كان «مسّي» ينتظر أن يسمع خبر صدور قرار السّجلّ المدني بشأن الاسم، لأن محنته لم تنسه وجود مِحَنٍ أخرى في الدنيا فحسب، ولكنّها أنسته وجود أصحاب هذه المحن أيضاً. وقد احتقر نفسه بسبب الإحساس المخجل بالأنانية؛ فانتفض ما إن نطق قرينه بكلمة «لكلينا!» دون أن يدرك يقيناً عمّا إذا كانت تلك الانتفاضة خيبة أمل، أم أنّها تكفيرٌ عن الإحساس بالإثم.

قال موسى بسيماء تشعّ سعادة:

– صدر أخيراً قرار السّجلّ المدني القاضي بالموافقة على استبدال الاسم!

تقلّص قلب «مسّي» ألماً قبل أن يتمتم:

– اسم مريم بالطبع!

بلع ريقه قبل أن يضيف:

– تهانينا!

ولكن الخِلَّ المسكين لم يلحظ إيماء الوجع في مقلة الجليس؛ لأن السعداء عادةً، عميان بسعادتهم دون أن يدروا، أنّهم بهذا

العماء، إنّما يجازفون بسعادتهم عندما يغيب عنهم سلطان الجسد.

مضى موسى يهلّل:

– اليوم استلمت إخطاراً من دائرة المواصلات بتعطيل قرار الإيقاف عن العمل أيضاً. هل تصدّق؟

تمتم «مسّي»:

– تهانينا!

صاح موسى وهو يلاحق النادل بإشارة من يده:

– هذا خبر دالّ في شأنك أيضاً.

هَمَّ «مسّي» بأن يستفهم، ولكن موسى سبقه إلى الإيضاح:

– إذا كان السّجلّ المدني المجيد قد تنازل عن كبريائه التقليدية وتراجع عن قراره بشأني، فهذا يعني قرب خلاصك أيضاً؛ لأن صدور قرار كهذا ينفي ما يقال عن استحالة تراجع السّجلّ المدني عن قرار أصدره يوماً!

ولكن «مسّي» خيّب ظنّه:

– ليس معجزةً أن يتراجع السّجلُ المدنيّ في أمرٍ يتعلّق باستبدال اسم؛ لأن الأسماء المنزّلة، كما اتفقنا منذ أوّل لقاء، قابلة للاستبدال. أمّا الرجوع عن الأسماء الأخرى (المشبوهة، أو الوثنيّة كما يروق لدهاة السّجلّ أن يطلقوا عليها)، فتلك هي

المعجزة!

حدّجه موسى بشقوة قبل أن يحاجج:

– يقال إن كفاح الأعوام يشفع!

– لا أصدّق!

– يجب أن تصدّق، والدليل أنك لم تطمع يوماً في دخول أقبية السّجلّ المجهولة التي قادتك إلى دوائر لم تخطر لك على بال، ولم تطمع يوماً في أن تطأها بالقدم.

اعترف «مسّي»:

– لم أطمع أن ألج أبواب السّجلّ حقّاً، ولكن..

سكت ثم أضاف:

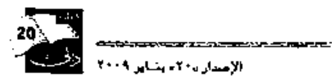
– ولكن من حقّي ألاّ أصدّق أنّي دخلتها أيضاً مادام الدخول إليها وَهْمَاً كعدم الدخول إليها!

– ألم يحدّثنا صديقُنا الكبيرُ عن وجوب التحلّي بالصبر في كلّ ما من شأنه أن يمتّ بصلة إلى دائرة السّجل؟

– ربّما كنت أستطيع أن أصبر أمداً أطول لو وُعِدتُ بأن أحيا عمر نوح!

– لا تنسَ أنّه نَعَتَ عمل دائرة السّجلّ بعبارة «دوّامة الروتين!».

– ماذا تعني؟



– أعني أن صاحبنا على علم بأسرار.

– أسرار؟!

سكت موسى. تلفّت حوله. مال نحو قرينه ليهمس:

– كلّ ما له صلة بالسّجلّ المدني أدغال تخيّم عليها الأسرار!

ابتسم «مسّي» باستخفاف؛ فقال موسى فجأة:

– ولكنْ، ألم يقل لك قرار السّجلّ بشأني شيئاً؟

هَزَّ «مسّي» منكبيه فأضاف موسى:

– لقد وعدني صاحبنا أن يتدخّل بشأني فبرهن على صدق الوعد. ألا يدلّ هذا على حسن نواياه؟

قال «مسّي» بلهجة مزاح:

– قد يدلّ هذا على حسن نوايا الرجل نحو شخصك حقّاً، ولكنّي لا أريدك أن تنسى أنّي لا أراهن على حسن نواياه بقدر ما أراهن على الصفقة المبرمة بيني وبينه، كما راق له أن يسمّيها.

– الصفقة؟

– ألم تكن شاهداً على العقد المبرم بيني وبينه؟

لوّح موسى بيده في الهواء قائلاً:

– أنا لا أؤمن بفعالية مثل هذه العقود.

تفحّصه «مسّي»، بفضول قبل أن يقول:

– أنا أفضّل التعامل بالوعود أيضاً بدل العقود، ولكنّ صاحبك هو الذي استجار بالقرطاس والقلم بدعوى الضمانات المزعومة!

اكتأب موسى فجأة. قال منكّس الرأس:

– لا أظنّه يجروْ على الاحتكام إلى ساحة القرطاس والقلم لو لم يمتلك يقيناً مّا!

نكّس «مسّي» أيضاً. تمتم بغموض:

– العهد في عُرْفنا ميثاق مع الربّ، ولهذا يستوجب الإكبار حتّى لو أخفق، ولكن العقد في عُرفنا صفقة مع إبليس، ولهذا فهو خطيئة حتّى لو أفلح!

21

انطلق الموكب مبكّراً: ثلاث آلات كئيبة اللون، منكرة الهيئة، تتلاحقّ في طريق الغرب، يقبع «مسّي» في جوف رائدة الركب إلى جوار السائق، في حين استقرّ صاحب النهي والأمر في المقعد الخلفي يجاوره رجل ذهبي الشعر، دخيل السيماء، يتكلّم لساناً مجبولاً برطانات الأعاجم، وربّما رطانات الأروام، قيل له إنه خبير طبقات الأرض المخوّل بالجوسسة على أعماق المسكونة، ليختلس من جوفها أعظم الكنوز شأناً الملقّب استعارةً بالذهب الأسود.

أمّا في جوف الآلة التالية فقبع «يوجرتن» إلى جوار السائق، في حين جلس في المقعد الخلفي معاون خبير طبقات الأرض. أمّا الآلة الخلفيّة فحملت الأمتعة والمؤن وقوارير الماء وبراميل الوقود ولوازم المبيت، يقودها سائق وحيد، مقنّع بلثام كئيب إلى جانب الغموض والوجوم، ليصير بذلك عدد الرحّالة ثمانية أشخاص، وهو رقم الحظّ الذي قيل إن وكيل الشركة اعتاد أن يتخذه تعويذةً في كل حركاته وسكناته كبديل للرقم التقليدي السابع في حساب العدد الذي يتفاءل به الدهماء عادةً.

كان صاحب الرحلة يحادث خبير الأرض في المقعد الخلفي

طوال الوقت مطلقاً عليه لقب «المهندس» لسببٍ مّا، مثنياً بلهجة مزوّرة، على جمال الصحراء وأفضالها في تكوين الحضارة البشرية، مدلّلاً على قوله بحقيقتها كمسقط رأس الديانات السماويّة.

ويبدو أن حججه عن رسالة الصحراء لم تقنع خبير النصارى (أو المهندس كما طاب لهم أن يدعوه)؛ لأنّه قبع في مقعده منكمشاً حول نفسه، يتقنّع ببسمة سخرية، ميمّماً صوب الأفق كأنّه لا يكتفي بأن يتجاهل الصحراء التي يتغنّى جليسه بآيات بهائها، ولكنه يلعنها في سرّه، ويتحرّق شوقاً للحظة التي ينتهي فيها من مهمّته ليرتمي في أحضان جحيمه؛ لأن المدينة مهما كانت، في ألسنة أبنائها، رديفٌ للجحيم، فهي الجحيم الأهون ألف مرّة من جحيم الصحراء.

في هذا اليوم فقط لاحظ «مسّي»، أن اسم وكيل شركة التنقيب هو «الباي»، كما يرد على ألسنة الفريق، فلم يَدْرِ ما إذا كان هذا اللّقب المهيب هو اسم الرجل الحقيقيّ، أم أنّه مجردّ كُنْيَة تترجم آي الإكبار.

مع حلول الظهيرة انحرفت القافلة عن شريط الطريق المعبّد جنوباً، لتستسلم لمشيئة العراء الذي استلقى ليعانق أفقاً يلتحم بسماء زرقاء، مغسولة من السحب، لتصنع مع عراء الصحراء

حلفاً حميماً لمتاهة إغواء طاغٍ لا تملك ملل العابرين إلاّ أن تتنكّر للإرادة لتستسلم له، فلا يجيرها من التّيه إلا الأدلاّء.

تولّى «مسّي» زمام الأمر ليعبر بالركب إلى وطن الأمان؛ حيث قضوا ليلتهما الأولى في خلاء مسطّحٍ إلى ما لا نهاية، مفروش بطبقة طينيّة ذات لون أحمر، عارية من النّبوت، خالية من الحطب، بل وحتّى من الحجارة.

بدأ الأعوان في إعداد طعام عشاءٍ شحيحٍ مستعينين بما جلبوه معهم من أرغفة الخبز، وحبّات الزيتون، والأسماك المعلبة، في حين انطلق خبير طبقات الأرض الملقّب بـ «المهندس» يتسكّع في العراء المجاور مصحوباً بمعاونه المحمَّل بالخرائط، والخرق، ودفاتر الملاحظات، وقوارير صغيرة، وأجهزة مريبة أخرى لم يسبق لـ «مسّي» أن شاهد لها مثيلاً.

كان الخبير ينكش الأرض بمهمازٍ معدنيٍّ في يده، ثمّ ينحني ليختبر الأرومة المستخرجة بين أصابعه. يتناول عيّنات من التربة ليحشرها في القوارير الصغيرة بعناية شديدة. بعدها يمضي مسافة أخرى لينبش موقعاً آخر، أو يحتفر هوّة بمعولٍ أنيقٍ صغير الحجم، يهرع به إليه مساعده عند أوّل إشارة ليرشق في الموقع بعدها علماً أحمر اللون، مثلث الأضلاع،

مثبّتاً في ساقٍ خشبيةٍ، كعلامة دالّة.

دأب حكيم الطبقات الأرضيّة على عمله هذا بِهَوَس طفل شقيّ طوال الأيام التي استغرقتها الرحلة.

22

في إحدى الليالي خرج «مسّي» بـ «يوجرتن» إلى الخلاء في نزهة. كان السكون عميقاً إلى حَدٍّ توهّم فيه الفتى أنّه يسمع صوتاً بعيداً لطبول مجهولة. أمّا السماء فتطهَّرَتْ من السحاب لتضيء الأرض بمصابيح نجومها السخيّة بديلاً من ضياء القمر.

قال الأب:

– نحن الآن على حافة صحراء اليبوسة. غداً سننزل تخوم صحراء الوعوثة قبل أن نعبر بعد يومين إلى صحراء الصّلد.

تنهّد بوجد الممسوسين بحمّى الحنين قبل أن يضيف:

– هذا وطنك! هذه الأرض الواسعة، سعة الرحمة، كلّها وطنك الذي لن يشاركك فيه أحد!

تسكّعا في العراء خطوات أخرى. أضاف الأب:

– هل تدري؟ لقد فكّرت طويلاً في مُصَابَيْنا لأكتشف أخيراً أن لجان السّجلّ المدني لم تخطئ يوم حجبت عنّا الاسم. هل تدري لماذا؟

زفر وهو يغيب في المدى الأبديّ المسربل بضياء حشود الأنجم السماوية الساطع. قال:

– أن ينتحل الإنسان لنفسه اسمه على سبيل الإعارة

خطيئة حقيقيّة تستوجب القصاص حقّاً!

اختلس إليه الابن نظرة عجب، ولكن الأب لم يفق من غيبته:

– منذ زمن بعيد وأنا أنتظر الوقت المناسب كي أروي لك حكاية سمعتها وصيّةً من فم أبي تقول إن الناس عندما خُلقوا إنّما خُلقوا جنسين اثنين، أو فلنقل طينتين اثنتين مختلفتين في سجيّتهما كلّ الاختلاف. وأن تختلفا في السجيّة إنّما يعني أنّهما مختلفتان في اليقين أيضاً بالطبع. فقد نزلت إحدى هاتين القبيلتين إلى الأسافل لتستقرّ في الواحات لتأكل من عرق جبينها بحرث أمّها الأرض، في حين احترفت القبيلة الأخرى الترحال في الصحراء لتتعيّش من الرعي ومن كلّ شيء تهبه الأرض على سبيل الهبة، لا على سبيل الغَصْب. وكان يمكن أن يستمرّ السّلم بين القبيلتين إلى الأبد لو لم يأتِ مرّة ميعاد القربان، فتقرّبت قبيلة الاستقرار بنصيبٍ من غلال الأرض، في حين تقرّبت قبيلة الترحال بنصيب الأنعام. ولكنّ حكمة المعبود أَبَتْ إلاّ أن تقبل أضحية النَّعَم لترفض تقدمة الزروع. فنشب العداء بين القبيلتين منذ ذلك اليوم بسبب الحسَد؛ لأن المعبود عندما قَبِلَ قربان القبيلة المهاجرة كافأها بالنبوّة، في حين ترك للقبيلة المستقرّة أمر الحرفة. والدليل هو الهويّة الصحراويّة لكلّ نبوّة، كما لم يحدث أن أفلح نبيّ في



ترويج رسالة ما لم يطهّرها بنار الهجرة. ولمّا كبّل المعبود أمّة الاستقرار بأغلال الحرفة، فقد صار أمر ترجمة النبوّة من لسان السماء إلى لسان الدنيا دَيْنَاً في رقبة القبيلة التي تمتهن الحرفة، على رغم أن لعنة رفض القربان طاردَتْها هنا أيضاً، لأنّه لم يحدث يوماً أن أفلحت هذه الأمّة الشقيّة في ترجمة فردوس النبوّة السماوي، لتجعله واقعاً أرضيّاً، على رغم كل المحاولات البطوليّة التي قامت بها في سبيل تحقيق هذه الأعجوبة منذ تاريخ الانقسام الموجع إلى يومنا هذا. وهو إخفاق لم تكن القبيلة المهاجرة لتغتفره لقرينتها المستقرّة، فرأت في التحريف استهتاراً برسالتها النبويّة، فلم تجد حيلة لتصويب التحريف إلاّ الاحتكام إلى السلاح. كانت القبيلة المهاجرة تشنّ الغارات المستمرّة على قبيلة العمران؛ لإنقاذ الوصايا الإلهية من التزوير الذي تعرّضت له على يد أمّة الحرفة بتعاقب الأجيال، فتخرّب المسوخ التي تطلق عليها قرينتها اسماً غامضاً ومشبوهاً في منطقها وهو: المدنيّة! منذ ذلك التاريخ تبادل الفريقان ضروب الاحتقار إلى جانب تبادل صنوف العداوة. فهل فهمت الآن لماذا يرفضنا أهل المدينة ويبخلون علينا بالأسماء؟

سكت «مسّي» ليلتقط أنفاسه. توقّف في خلوة قاسية نبتت

فيها شجرة رتم وحيدة، عزلاء، مهجورة، في ذلك العراء الخالد كأنّها شبح الإله. تناول فرعاً من فروع الشجرة المكابرة التي يروق لشعراء القبائل الصحراويّة أن يتغنّوا بفروعها فيشبهوها بخصلات شَعْر الحسان. تمتم «مسّي» بوجل:

– مازالت خضراء على رغم جدب الدهر!

ملأ رئتيه بهواء لم يكن له أن يطمع في استنشاقه ولا مرّة في المدن، ثمّ قال:

– الأسماء على سبيل الإعارة بدعة لم يخترعها أهل الصحراء، ولكنّها من اختراع أهل العمران أيضاً. هل تدري لماذا؟ لأن أهل العمران وحدهم يروق لهم أن ينالوا بالمجّان من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء انتزاع الأشياء انتزاعاً، بسبب رذيلة مُنْكِرَة حق لنا أن نسمّيها داءً، وهي الخمول!

دَبّ في العراء الأبدي إلى الأمام قبل أن يضيف:

– لأن نيل اسم الاستحقاق، في مقابل احتقار الاسم الموهوب على سبيل الهبة، رهين بطولة. وهو شرط لا طاقة لصاحب الخمول عليه. لهذا السّبب كان أسلافنا القدماء لا يطلقون على الأبناء أسماءً حتّى يشبّوا لينتزعوا لأنفسهم أسماءً بأنفسهم. كان كهنة القبائل يحذرون الأكابر من إطلاق أسماء الاستعارة، ويشدّدون على الاكتفاء باسم القبيلة علامةً

جماعيةً يحملها النشء، إلى حين بلوغ سنّ الرّشد التي يستطيع فيها الفتى أن ينتزع لنفسه اسماً منفرداً هو دائماً صفة لفعل مَيّزَ هذا الفتى عن ذاك مثل: «يوجرتن» إذا اشتمّتْ فيه القبيلة الميول البطولية، أو «مسّينسن» إذا دلّل على موهبة في الزعامة، أو «إنَهري» إذا بيّن عن علامات تنذر بطموح إلى الثراء، أو «نفرونتيتي» إذا وعد مبكّراً بممارسة الحكمة. هذا يعني أن الطبيعة التي يبشّر بها الفتى هي النعت الذي يجب أن يُدْعَى به؛ لأنّه لم ينله على سبيل الإعارة من أحد، ولكنه صنعه بيده، ليصير له صفةً ذات معنى، لا اسماً ميّتاً خاوياً من المعنى كما هو الحال في المدن. ولهذا فإنّ ميلاد الوليد في الصحراء ليس هو اليوم الذي يولد فيه بالجسد لتصرخ العجائز في أذنه بالعطيّة المخجلة المسمّاة اسماً، ولكن ميلاد الوليد هو يوم يولد بالرّوح، لأن الإنسان، في ناموس الإسلاف، لا يولد بالرّوح حقّاً (وهو الميلاد الحقيقي)، إلاّ في اليوم الذي يحقّق نفسه في الفِعْل!

سكت الأب زمناً. كانت خطواته في الأرض المفروشة بحبيبات الحصباء تحشرج بوشوشة مكتومة، لتنتهك حرم السكون الذي لا ينقلب سكينةً إلا في الصحراء.

عاد الأب إلى سيرة الاسم:

– ما أردتُ أن أقول هو أن سلطات السّجل المدني لم تخطئ بحرماننا من الاسم المستعار؛ لأنّها بعملها هذا أعادتنا إلى طبيعة أسلافنا (الذين لا يعترفون إلا بالاسم المكتسب)، من دون أن تدري.

سكت لحظة. تطلّع إلى الابن خلسة. أضاف:

– أعادتنا لجان السّجلّ إلى الوطن، في حين ظنّت أنّه منفى، فهل تستطيع أن تفهم ما أردت أن أقول؟

لم ينبس الابن فعاد الأب يلحّ:

– هل تظنّني أتحدّث الأحاجي حتّى يستعصي عليك الفهم إلى هذا الحدّ؟

تشبّث الابن بالصمت فاعترض الأب سبيله:

– لا مفرّ من العودة إلى الصحراء إذا شئنا أن نستعيد الهويّة التي لا تحتاج إلى شهادة مدوّنة في قرطاس، ولا حتّى إلى اسم مفترض مسبقاً ليكون في العنق وسماً، وربّما بصمة من بصمات العار!

وقفا في مواجهة مزمومة. كان الأب يرتجف انفعالاً، تومض مقلتاه تحت ضوء النّجوم ببريق منكر. دامت وقفتهما طويلاً قبل أن يتنازل الابن ليجيب الأب:

– أن أحيا في المدينة باسم مفترض أهون عندي من

أن أحيا في هذا العدم باسم مكتسب!

23

تأمّل الأب جواب الابن طوال اليومين اللذين استغرقهما العبور من صحراء اليبوسة الطينيّة، إلى صحراء الصّلد الصخريّة مروراً بصحراء الوعوثة الرمليّة. بسبب جواب الولد لم ينم في تلك الليلة، لا لأنّ يقين مَنْ ظنَّه وريثاً، أو خليفة له في الأرض، خذله في وقتٍ عوّل فيه عليه وعلّق على مستقبله الآمال فحسب، ولكن لأن ذلك الفتى الصموت الخجول الذي لم يجسر يوماً على أن يرفع نحوه بصراً أو يعصي له أمراً، أيقظه من غفلته بعبارة واحدة دالّة وحاسمة. أيقظه من غيبوبته التي لم يفق منها منذ حمل شهادة الولادة في جيبه، وذهب بها إلى بنيان السّجلّ المدني ليجد نفسه أسيراً مشدوداً إلى أريكة الانتظار الخشبيّة. هذا الوتد الذي لم يفلح في التحرّر من قيده حتّى عندما هجر الأريكة ويئس من التردّد على دهاة السّجل؛ لأنّه صار جزءاً منه، صار ضرباً من ختم يحمله في قلبه، كما حمله غصّة في حلقه، وسيحمله معه، كما يبدو، إلى قبره.

غيبوبة الانتظار هذه، أو كابوس الانتظار بالأصحّ، أنساه أن الأبناء إذا وُلدوا فلن يكتفوا بشهادات الميلاد، أو وثائق الهويّة، كي يحيوا. كما أنّهم ليسوا دُمَىً بين أيدي الآباء تكفي

هدهدتهم أو التلويح بأبدانهم في الهواء، كي يُعْتَرف بهم أعضاءً في محفل الجماعة البشريّة، ولكنّهم قنابل موقوتة قابلة للانفجار وتعريض حياة المجتمع لأكبر الأخطار إذا أسيء استخدامها، أو اقْتُرِفَت أبسط الأخطاء في التعامل معها. فماذا فعل هو لتجنيب نفسه، وكذلك مجتمعه، تبعات هذا الخطر؟

سيعلّل التقصير بالطبع بالانشغال بمراسم التسجيل التي التهمت كل وقته، ولكنّ عليه اليوم أن يعترف بأن دوّامة السّجلّ لم تكن السّبب الوحيد. عليه أن يعترف بخطيئته نحو وليّ عهده إذا أراد أن يُفلح في تشخيص علّته؛ لأن من لا يعترف بمرضه ليس عليه أن يطمع بالشفاء من مرضه. بلى! لقد نسي أنّه رُزق وريثاً منذ الأيام الأولى لحلول المولود. عَدّه حقّه المكتسب فلم يلتفت إلى حاجاته الحقيقية كإنسان في طور التكوين. عامله كما عامل ممتلكاته التي اكتسبها بعرق الجبين، بدايةً بالحانوت ونهايةً بالبيت، مروراً بربّة البيت. تركه بين يدي الأمّ رهينة في الآونة الأولى لتتولّى تربيته، ونسي أنّ الأمّ لم تكن يوماً مربّية حتّى لو شاءت أن تربّي. وعندما توفيت الأمّ، متأثّرة بِهَمٍّ حرمان الولد من الاسم، وضعه رهينةً أخرى بين يدي إحدى الجارات، مقابل أجر،

لتتولّى تربية لم تكن حتّى الأمّ جديرة بها. كان يرى في الوريث غنيمة مفروغاً منها، وذهب ليهب وقته النفيس في طلب هويّة رآها هي الغنيمة المنشودة. رآها الغنيمة الأكثر أهميّة. رآها الغنيمة الغاية، ونسي أن الوليد هو الغاية، وما الهويّة سوى وسيلة لإثبات هذه الغاية. لم يكن مسؤولاً بطبيعة الحال عن عماء الروتين المدني الذي يعتنق عقيدة تناقض هذه العقيدة كليّاً، لأنّها لا تعترف بالقيمة التي يحملها هذا اللّغز الخالد المسمّى إنساناً، ولكنّها تعترف بالوثيقة المدوّنة في قطعة القرطاس؛ لأن البشر في دينها ليسوا بشراً باللحم والدم والروح، ولكنّهم بشر بالأوراق الثبوتية المتداولة في الدوائر الرسمية! ولكن عليه أن يعترف لنفسه الآن أنّه أُصيب بالعدوى دون أن يدري. أُصيب بوباء هذه العقليّة ربّما بسبب طول أمد معاشرته لدهاة اللجان الإدارية، فآمن بديانة هذه الأجهزة دون أن يدري. لأنّ الملحمة التي عاشها في سبيل انتزاع الاعتراف الرسمي بالوريث أنسته أنّ «يوجرتن» هذا إنسان قبل أن يكون هويّة مدوّنة في وثيقة رسميّة. وأن يكون هذا الإنسان وليداً يعني أن يكون في طور التكوين. وأن يكون في طور التكوين يعني أنّه في حاجة إلى أب إلى جانب حاجته إلى وجود الأمّ. وأن يفقد الأمّ في زمن مبكّر فهذا يفترض أن

يكتسب الأب مرّتين، لا مرّة واحدة فحسب. وأن يكتسب الأب لا يعني أنّه اكتسب الخلاص الأخير، بل هذا الكسب لن يكون إلاّ الخطوة الأولى نحو الكسب الحقيقي المتمثّل في إشباع النّهم كي يعرف نفسه: تلك المعرفة التي لا تتحقّق في العادة إلاّ إذا احترق بنار معرفة الأشباح التي يراها تسعى كلّما التفت حوله.

لا ينكر أنّه لم يبخل بالجهد في سبيل أن يرى خليفة العهد يجلس إلى جوار التلاميذ على مقاعد المدرسة. ولكنّه لم يذهب إلى أبعد من مجرّد محاولة انتهت إلى الفشل كما توقّع. كان بوسعه أن يستجلب له معلّماً يلقّنه الدروس المبدئيّة في البيت، ولكنه لم يفعل لأنّه لم يجد لذلك وقتاً في خضمّ عراكه مع أشباح اللجان الإدارية. كان بوسعه أن يتولّى الأمر بنفسه ليلقّنه هذه الدروس، ولكنّه لم يفعل استهانةً بفعالية العلوم المدرسيّة هذه المرّة، وهو الذي تباهى دوماً بأنّه تلقّى تعليمه العالي في مدرسة المدارس (الصحراء)، ولم تكن له مدارس الواحات، أو بطون الكتب التي نهل منها، أساساً، بل دعماً. كأنّ وريثه الذي صار له مستنقع المدينة مسقط رأس، يستطيع أن يتلقّى تعليمه وَحْيَاً من دنيا المجهول، أو ينال حكمة الصحراء من أبيه على سبيل الوراثة! كأنّه لا يدري أن الصحراء أيضاً لا

تعترف بأولئك الأبناء الذين لم تكنْ لهم مَسْقطَ رأس، لأنّها لا تجد ما تفعله بهم عندما يجيئونها كباراً إلاّ أن تكسر فيهم الكبرياء، فإذا أخفقت كسرتهم بلا رحمة. إذا أخفقت لا تعلّمهم، ليقينها بأنّهم غرباء (والغرباء في ناموسها ملّة غير قابلة لتلقّي حكمتها لعلّة الاستعلاء)، ولكنّها تعمد إلى الاقتصاص منهم بقتلهم شرّ قتلة!

هذا هو المصير الذي أراده لخليفته في الأرض دون أن يدري. لقد اغترب عنه الوريث كبيراً؛ لأنّه اغترب هو عن الوريث صغيراً. ظَنَّ العرق دسيسة مؤهّلة لبثّ روح الصحراء في روح الوريث بالوراثة. راهن على نداء الدم، ونسي أن صخب المدينة أقوى مفعولاً من أقوى نداء يصرخ به الدمّ. خَطَّط نيابةً عن الولد، ليحيا نيابةً عن الولد، ونسي أن لا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يحيا نيابةً عن أحد!

24

بلغ بالقافلة صحراء الصّلد، فانسلّ من الجمع ما إن حطّوا الرحال في أحد الوديان مصحوباً بالوريث. قال له وهو يغيب به في عمق القيعان ثمّ ينحرف مع انكسار مسيرة الوادي نحو الشرق:

– سأريك اليوم شيئاً، ولكن عليك أن تعدني بألاّ تخبر به أحداً!

تحصّن الفتى بوجومه كعادته، فألحّ الأب في انتزاع الوعد:

– هل تعدني؟

أومأ الابن برأسه إيجاباً فأضاف الأب:

– ذلك سرٌّ توارَثَتْهُ قبائل الصحراء جيلاً عن جيل، والموت قصاص لكلّ من قاد الأغراب إلى ساحته، لأنّه..

سكت الأب قبل أن يكمل العبارة. تطلّع إلى الصخور الهائلة التي تتسلّق السفح كأنّه يفتّش في أجرامها المهيبة عن علامة مّا. كانت سوداء اللون، عظيمة الحجم، تدحرجت قطعٌ منها عبر السفوح بفعل الزلازل، وربّما سيول الأزمنة القديمة عندما كان الوادي نهراً يفيض بالمياه، في حين انتصبت صخور أخرى في الأعالي بقامات مكابرة كأنّها تستطلع الآفاق لتنذر القيعان بالرؤى. بعض هذه الجلاميد تستعير سيماء قداسة لا

تنطق بها عادةً إلاّ جدران المعابد القديمة. في مثل هذه الجلاميد اعتاد الأسلاف أن يختطّوا وصاياهم الخفيّة كسجلّ مفتوح ليقرأه الأخلاف من بعدهم. بعض هذه الوصايا مزبور في جوف الجلاميد حفراً في الصخر. وبعضها الآخر وسماً بالألوان. بعضها تعبير بالعبارة المحفورة برموز الأبجديّة الصحراويّة القديمة. ولكن بعضها الأقدم عهداً، منحوت بلغة الاستعارة المتمثّلة في الرسوم.

في المساحات الجبليّة الواقعة بين الجلاميد المقدّسة، تناثرت أضرحة الأسلاف بأحجام تختلف باختلاف مقام صاحب الضريح: السفوح العليا مكان أنسب للكهنة وأصحاب الزعامة، والسفوح الوسطى مثوى أنسب للأكابر وبعض الأبطال أو القادة، أمّا السفوح الأسفل المعرّضة لغارات السيول فهي حكر على الأقوام الأقل مقاماً.

والمكانة لا تتحدّد بمستوى مكان الضريح من الوادي فحسب، ولكن حجم الضريح له برهان آخر: فكلّما عظُمَ الحجم دَلَّ ذلك على مكانة صاحب الضريح الاستثنائية في حياته الدنيا، وكلّما تضاءل حجم الحجارة، برهنت هذه الضآلة على تضعضع شأن صاحب الضريح في أثناء حياته في المجتمع.

في عمق الوادي أيضاً انتصبت بعض الجلاميد التي

تدحرجت من الأعالي، لتتحوّل جدرانها أيضاً إلى لوح مسطَّر برسائل الأوائل المجهولة: تمائم محفورة بالأبجديّة القديمة، أخبار مطلسمة لمواقع الآبار، وأخرى أشدّ طلسمة تقود إلى مواقع الكنوز، أشعار في مديح المعشوقة، عبارة مبهمة تعبّر عن الحنين الجنوني إلى الخلود!

سار الأب برفقة الابن في درب الحَرَم صامتاً. كان الأب يتأمّل الوصايا المطبوعة في قلب الصّلد بسيماء من يؤدّي صلاةً. في مقلتيه وَجْد، في مشيته وَجَل، إلى أن توقّف أمام صخرة عالية محفورة بالوصايا من شعفتها العليا حتّى حضيضها الذي يسدّ عنق الوادي.

هناك تسلّل عبر شعبة ضيّقة كأنّها شقّ أفضت إلى مسرب يصعد إلى أعلى، فتبدّت الصخرة الرهيبة مارداً سخّرته الطبيعة لحراسة ذلك الفم الذي تلوّى كالثعبان قبل أن يقودهما أخيراً إلى الموقع.

هناك أمام حصنٍ مشيّدٍ من الصّلد ينتصب ملتفاً حول الجلمود السرّيّ كأنّه سور، أو تميمة شيّدتها الطبيعة الصحراوية الحكيمة لتحمي روحها التي تسكن ذلك الحجر الخرافيّ الذي تقول الأساطير إنه يخفي سرّ الصحراء. كان الحجر مسبوكاً من صلد صقيل، ناصع، غريب عن حجارة

صحراء الصلد السوداء، يقف مستديراً كقاعدة لحجر آخر، يلتحم به التحاماً، ينتصب فوقه ليكوّن قمّة مثلثة الأضلاع، مزبورة برموز الأبجديّة القديمة بلسان اللغة القديمة الضائعة التي لم يعد في الصحراء من يستطيع أن يفكّ طلسماتها منذ زمن بعيد، على رغم أن كهنة الأجيال التالية يؤكّدون أنّ الرموز ما هي إلاّ وصيّة منسيّة حفرتها يد الربّة «تانيت» بمهماز النار على علامتها ذات الأضلاع الثلاثة لتهتدي بها الأجيال. ولكنّ الوصيّة أضاعها الزمان يوم أصيب القوم بداء النسيان فأضاعوا لغتهم الأصليّة بمرور الأيام.

ضاعت فحوى الوصيّة الإلهيّة، ولكن مفعول الوصيّة لم يضع بمرور الأيام، لأنّ القبائل جرّبت أنّها لم تهرع يوماً إلى الحجر المقدّس في طلب النجدة من خطر (سواء أكان وباءً، أم جفافاً، أم عدوّاً)، إلاّ وأنجدها الحجر.

في ذلك اليوم حدّث الأب «مسّي» خليفة عهده «يوجرتن»، كيف كانت القبائل تنحر قرباناً في أزمنة المحنة، ثم تذهب لتستجير بالحجر بِدَهْن الصّلد بشحم القربان، فلا تلبث البليّة أن تنقشع. ولكنّ الأب اكتأب فجأةً وهو ينهي روايته للابن قائلاً إنّ البلاء سيعمّ، والصحراء لن تعود صحراء، في ذلك اليوم الذي سيقع فيه الحجر المقدّس في يد الدخلاء.

ثمَّ التفت إلى الابن دامع العينين ليقول:

– هل تفهم الآن لماذا انتزعتُ منك الوعدَ لتكتم السرّ؟

سكت. تقدّم خطوتين. جثا على ركبتيه أمام الحجر. لامس الأحافير المبثوثة في الصّلد الصّقيل. مسح بأصابعه غباراً علق بالأحافير بفعل الرياح. تمتم كأنّه يخاطب نفسه:

– لقد قادني إليه أبي يوم أحسّ بدنوّ الأَجَل، ليضعه بين يديّ أمانة أخيرة على عادة كل الآباء في الصحراء.

لحظتها تساءل الابن:

– لو كان ما تقوله عن طبيعة الحجر السحريّة صحيحاً، فلماذا لم يفلح في إنقاذ الصحراء من الجدب الذي شتّت شمل القبائل في السنوات الأخيرة؟

نهض الأب. طاف حول الحجر مرّتين. قال وهو يصقل بكمّ ثوبه الوصيّة المحفورة في علامة ربّة الصحراء «تانيت» المثلّثة الأضلاع:

– الجدب قصاص منزّل على القبائل بسبب استهانتها بوصيّة الوصايا التي توارثتها الأجيال، ونسبها الحكماء إلى الكتاب المقدّس المفقود «آنهي».

– وصيّة الوصايا؟

تساءل الابن بفضول لم يعتده منه الأب. تطلّع إليه الأب

بفضول أيضاً قبل أن يجيب:

– الاستهتار بالوصيّة التي تحذّر من المِلْكية كان السّبب.

غمغم الابن بعبارة مبهمة. في سيمائه ضبط الأب استخفافاً خفيّاً قبل أن يضيف:

– ما امتلكْتَهُ يداً، امتلَكَكَ روحاً! هذه هي الوصيّة الأولى في ناموس الأمّة المهاجرة، وهي الدرس الإلهيّ الأخير أيضاً.

على شفتي الفتى ارتسمت بسمة ساخرة. ولكن الأب لم ييأس:

– هل تدري؟ لقد جنيتُ عليك أيضاً بمخالفتي لهذه الوصيّة!

لم يكلّف الابن نفسه عناء الاستفهام. استجار بقناع وجومه الكئيب من جديد، فأوضح الأب:

– في الصحراء يأخذ الآباء أبناءهم من أحضان أمّهاتهم ليعيدوهم إلى أحضان أمّهم الكبرى، أمّهم الحقيقيّة الصحراء، لتعلّمهم الحكمة. أمّا في دنيا العمران فالأمّ هي المعقل الأوّل وهي المعقل الأخير. كما أنّها المعلّم الأوّل، وكذلك المعلّم الأخير. والأمّ، كما تعلم، معقل هشّ، كما أن علمها عِلْم هشّ! أمّا الأب فلا يجد ما يفعله في هذه الرحاب العمرانية إلاّ أن يحوم حول هذا المعقل الهشّ، ممنيّاً نفسه بذلك الأمان المزوّر

الذي تهبه المِلْكية، لأنّ ناموس الأمّة العمرانيّة هو الذي يمليها بالحسنى، فإن سوّلت النفس الأمّارة بالسوء بعصيانها، فَرَضَها هذا الناموس بالقوّة. هذه الخطيئة (خطيئة الاستسلام للملكيّة)، هي التي عليّ أن أدفع ثمنها، وإلاّ لما اغتربتَ اليوم عنّي لتغترب بالتالي عن نفسك أيضاً!

فرغ من الحجر. تطلّع إلى شمس الغروب وهي تتحمّم في يمّ مخضّبٍ بالدمّ. أضاف:

– الحجر لا ينقذ إلاّ الأحياء الذين يريدون أن ينقذوا أنفسهم، أمّا أهل الملكيّة فأموات حتّى لو ظنّوا أنفسهم أحياءً!

تحصّن الابن بأقنعة استخفافه ووجومه وانطوائه إلى أن قال الأب:

– حلّت اللّعنة على السلالات العابرة يوم استدرج أهل الاستقرار قبيلة الترحال بالنساء، فركنوا إلى الأرض أمداً زاد على الأربعين يوماً، ولم يعصمهم الحجر المقدّس من العقاب؛ لأنّ الحجر لا يجير القبائل من الخطيئة التي نقترفها بأيدينا، ولكنّه يجير من البليّة التي تُغِير على الصحراء من خارج الصحراء. فهل تعي ما أقول؟

لم يجب الابن. لم يكلّف الأب نفسه عناء تلقينه المزيد أيضاً. عادا إلى موقع القافلة مع حلول المغيب، فوجد الأعوان

ينتشرون في قاع الوادي بحثاً عن حطب استعداداً لإعداد طعام العشاء.

تقدّم نحوه «الباي» ليقول بلهجة ماكرة:

– قيل لي إنّك تتعمّد أن تختلي بوليّ العهد في الكهوف لتدلّه على مواقع الكنوز الخفيّة التي آمنك عليها أسلافك!

ثمّ أعقب عبارته بضحكة مفتعلة.

25

استيقظ «مسّي» في غيهب السَّحَر كما اعتاد أن يستيقظ كلّما قادته الأسباب ليقضي اللّيل في الصحراء، كأنّ الصحراء تأبى إلاّ أن توقظ مريديها مبكّراً بمهمازٍ خفيٍّ، ليشاهدوا ميلاد شمس كانت في عرف الأوائل دائماً معبوداً تستوجب عودتُهُ ممارسةَ مراسم الإكبار.

تطلّع إلى قاع الوادي حيث تناثر رفقاء الرحلة فوجدهم يغطّون جميعاً في نوم عميق باستثناء رفيقٍ واحدٍ تبيّن مرقده خاوياً. انسلّ من أغطيته وسعى في الأرض. سلك امتداد الوادي الأعلى. في القاع انتشرت أشجار بريّة ظامئة، وأعشاب شاحبة تتلبّ الحضيض كأنّها تستجير به من جور القيظ الخالد. على سفوح الضفّتين انتصبت أنصاب الأضرحة بهامات كأنّها أشباح لأرواح الأسلاف. ولكن السكون استولى على الدنيا ببسالة كأنّه يدلي، بهذه الاستماتة، بشهادته عن حُرْمة الحَرَم، وبكارة الملكوت.

انحرف يميناً ليسلك شعبة تلوّت في سفرها، لتتسلّق المرتفع المشرف على القاع الذي تحوّل جبلاً عالياً كلّما قطع الوادي مسافة أبعد في مسيره نحو الأعالي. هناك، في العلوّ المجاور للقمّة، تبيّن شبحاً يعتلي صخرة كأنّه ضبّ يعتلي

مرداة جحره ليستطلع العراء قبل الخروج في طلب الكلأ. الشبح كان يستطلع الأفق أيضاً، حيث يستلقي استواء الصحراء الحجريّة في امتدادٍ قاسٍ لا يعد بنهاية، فيبدو الوادي في بدنه أخدوداً متعرّجاً شبيهاً بالتشوّه، لأنّه يستبيح براءة الاستواء.

وقف بجوار الشبح لحظات قبل أن يوحي له الصنم بالتحيّة بهزّة من رأسه المقنّع بلثام كئيب: ذاك كان سائق الآلة المحمّلة بالأمتعة التي تسير في ذيل القافلة طوال الرحلة. كان ملفوفاً بالغموض، يجتنب بقيّة رفقاء القافلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. يتشبّث بالصمت، ولا يتكلّم إلاّ جواباً عن سؤال. يخفي كآبته وراء قناعه الكئيب.

استثاره منذ أوّل يوم، وهو الذي عرف أنّ الناس لايعتزلون الناس بلا سبب. ولم يكن عسيراً عليه أيضاً أن يلحظ اهتمام صاحب غرابة الأطوار بشخصه أيضاً. فقد ضبطه مراراً وهو يسترق إليه النظرات خلسة، بل كثيراً ما خُيّل له أنّ الرجل يتحين فرصة للاختلاء به، ولكنه لا يلبث أن يحجم في آخر لحظة لسببٍ مّا.

وقف إلى جواره فتنحّى الرجل جانباً ليفسح له عن مكان فوق الصخرة. جلس إلى جواره صامتاً. راقبا زحف الضوء البكر وهو يشتّت شمل الغيهب في قوس الأفق. قال «مسّي»:

– كان الأوائل يتأمّلون هذا الطقس فيحسّون أنّهم يولدون من جديد مع مطلع كل يوم جديد!

تشبث الرجل بالصمت، فأضاف «مسّي»:

– في طفولتي كان الأشياخ يحرّمون علينا الكلم قبل شروق الشمس، لأن الجعجعة في عرفهم خطيئة تبطل صلواتهم التي تشترط الصمت أوّل ما تشترط!

لم ينبس الرجل. لم يلتفت. انتصب في عتمة الفجر كنُصُبٍ أخرسَ، فتبدّى بين أنصاب المرتفع الجبلي كاهناً لا يختلف عن أولئك الكُهّان الذين كانَهم كلُّ أشياخ الصحراء الذين عرفهم زمن الطفولة، بل وكانَهم كلُّ من لم يعرف من أسلافه الذين يُكْبِرون السكون الصحراوي كما يُكبِرون ربّتهم الصحراء، وكما يُكْبِرون ناموسهم «آنهي» الذي ينعتونه بالضائع، ولكنّهم على رغم ذلك، لايكفّون عن الاحتكام إلى وصاياه للتدليل على الصواب، وللتدليل على الخطأ، لإكبار الفرح أو للتقليل من شأن البليّة، بمناسبة وبلا مناسبة.

ولكنّ الشبح الملفوف بالغموض تكلّم فجأةً كما يليق بكلّ كاهن حقيقي:

– اسمي نزيه الفاضل!

التفت إليه «مسّي» فوجده مشدوداً إلى الأفق البعيد الذي

يسرح وراء الوادي ليتسربل بالقبس الوليد. في جلسته استكبار خفيّ خليق بأهل العزلة. ليس استكباراً، ولكنه ضربٌ من قداسة رهينة كلّ جرمٍ صحراويٍّ مسكونٍ بالسكون. ولكنّ العبارة ما لبثت أن نالت من الإيماء السرّيّ الذي خاله «مسّي» منذ قليل قداسة.

في البُعْد تعرّى المدى بفعل الضوء فتبدت الصحراء الحجريّة مستويةً، قاسيةً، في توالدها الأبدي، ولكنّها على رغم ذلك، لا تبخل بحميمية مبهمة لن تكون إلاّ ذلك الإغواء الذي يستدرج أمّة العابرين ليقودها إلى التّيه.

قال نزيه الفاضل:

– أنت نسيتني، ولكن لم يكتب لي أن أنساك!

التفت إليه «مسّي» ليتفحّصه كأنّه يكتشف وجوده إلى جواره لأوّل مرّة، ولكن نزيه هرع لنجدته قبل أن يستفهم:

– هل نسيت موظّف السّجلّ المدني الذي شاء له سوء الحظّ أن يستلم منك مستند الولادة منذ سنوات؟

تفكّر «مسّي» لحظات. تذكّر مسيرة الانتظار في لمحة بصر: مسيرة الانتظار التي كان موظّف المحفل خطوتها الأولى. بلى! موظّف الاستقبال الذي اختفى من ساحة المحفل إلى الأبد ليختفي معه المستند أيضاً.

قـال «مسّـي»:

– لا أعرف لمـاذا تعتقد أن ذلك كـان سوء حظّك أنت ولا تعتقد أنّه سوء حظّي أنـا!

زفر ثم أضـاف:

– اخـتـفـاؤك عن الأنـظـار رهـنـنـي قيد الانـتـظـار منـذ ذلك التـاريخ إلى يومنـا هذا!

– أقول سوء حظّي لأن استلامي لمستندك المشؤوم ذاك تسبّب في طردي من عملي في السّجلّ المدني!

– لا أعرف كيف يتسبّب استلام مستند من مواطن في طرد موظّف من عمله!

– السر في الاستلام. ما كـان يجب أن أتسلّم منك ذلك المستند بعد صدور لائحة الأسمـاء المُنزَّلة!

تطلّع إليه «مسّي»، ذاهلاً قبل أن يتسـاءل:

– أيعقل أن يتحوّل استلام مستند رسمي مستخرج من دائرة رسمية، كمستشفى الولادة، لطرد موظّف من عمله؟

– أنت تتعجّب لأنّك تجهل مـا معنى كلمة «استلام» في معجم السّجلّ المدني.

سكت نزيه لحظة ثم أضـاف:

– ربّمـا لم تكن كلمة «الاستلام» لتعني الكثير حتّى في

عرف السّجلّ المدني لولا كلمة «إيصال» التي تُدْفع مقابلها!

- إيصال؟

- لقد استلمت منك مستنداً مقابل إيصال بالاستلام، وهو ما يعني تبادل وثائق في عرف السّجلّ. ووجود مثل هذه الوثيقة بين يديك يعدّ اعترافاً من السّجلّ تستطيع بموجبه أن تضمن حقوقك!

- هل أستطيع أن أنتزع حقّي من براثن السّجلّ المدني بإيصال استلامٍ تافهٍ إذا كنت لم أستطع أن أفعل ذلك بوجود صاحب الاسم باللحم والدم؟

- لا أعرف كيف لم تدرك حتى الآن عدم وجود مفهوم اللحم والدم في قانون السّجلّ المدني!

- هل تريد أن تقول إن ذلك الإيصال البائس وثيقة يمكن أن تحقّق لي شيئاً؟

سكت نزيه زمناً. قال:

- بالطبع تستطيع أن تحقّق شيئاً لو أحسنت استعمالها!

سكت «مسّي» فأضاف نزيه:

- هل تظنّهم كانوا سيلتفتون إليك حتى لو مكثت في الانتظار ألف عام، لولا يقينهم بوجود مستند الاستلام في حوزتك؟

– ولكن لم يخبرني أحد بأن الاستلام يعني القبول في عرف السّجلّ المدني!

– قبول المستند الإداري يعني وجوب إنهاء الإجراء الإداري ضمناً، وجهل المواطن باللوائح خطيئته هو لا خطيئة اللوائح!

كان «مسّي» يرتجف عندما تمتم غائباً:

– إيصال الاستلام! الحقّ أنّي لا أذكر أنّك أعطيتني هذا الإيصال مقابل المستند!

– لو لم أضع بين يديك الإيصال ما طُرِدْتُ من عملي لأجد نفسي مفصولاً عن العمل زمناً اضطرني إلى أن أقبل العمل كمجرّد سائق في دائرة المواصلات!

سكت لحظة. أضاف:

– ولكنّ استبسالك أربكهم بقدر ما أثار إعجاب بعضهم الآخر!

– استبسالي؟

– أعني الانتظار!

سكت نزيه لحظات. قال:

– كانوا على يقين أنّك تخفي لهم مفاجأة، وإلاّ لما نفضوا الغبار عن الملف!

– نفضوا الغبار عن الملف؟

– نَفْضُ غبار النسيان عن الملفّ في لغة السّجلّ مثيلٌ لإطلاق سراح السجين من الزنزانة الإنفرادية، شريطة ألاّ يطمع في الخروج من حدود السجن!

– أيَ أنّه استبدال سجن بسجن!

– بل أسوأ من استبدال سجن بسجن. هل تدري لماذا؟ لأن عمر المكوث في السجن الانفرادي عادةً قصير جداً، مهما طال به الزمن، إذا قورن بالحرمان من الحريّة بالبقاء داخل جدران سجنٍ لا يبدو في عرف السجّان سجناً لا لشيء إلاّ لأنّه أرحب مساحةً!

غالب «مسّي» غصّة. استولت عليه الحمّى وهو يحاول أن يستعيد سيرة الإيصال. سيرة قصاصة ورق صادرت حياة إنسان. إيصال لم يكتب يوماً في قرطاس وقور، ولكنّه بسبب تفاهته وضآلة شأنه تعمّدت كلّ الإدارات أن تجعله قصاصةً مستقطعة من ورقة إمعاناً في الاستهانة به. قصاصة ورق تستعير من روح العمران سلطة إلهيّة، بحيث تستطيع أن تلغي وجود إنسان من لحم ودم بجرَّةِ قلم! فيالسخرية ناموس العمران الذي لا يكتفي بهذه النكتة المميتة، ولكنّه لا يستحي من أن يتشدّق بالحضارة والأخلاق المدنيّة!

تساءل «مسّي» ببراءة طفل مخدوع بوعدٍ مزوّر:

– هل تظنّ أن بوسعي أن أحقّق شيئاً لو أسعفني الحظّ وعثرت على الإيصال الملعون الذي تتحدّث عنه؟

غمر الصحراءَ ضياءُ أوّل أشعة الشروق. من قاع الوادي سمع «مسّي» جلبة أعضاء القافلة. قال نزيه:

– أشكّ!

كان جواباً قاطعاً كنصل السكين لم يتوقّعه «مسّي». أضاف نزيه:

– كما تسقط الجُنحة، أو حتّى الجريمة، بالزمن المسمّى في لغة القوانين «تقادماً»، كذلك يسقط الحقّ الذي تمنحه الوثيقة بالتقادم! كم من الزمن مضى منذ تاريخ منحك الإيصال إلى اليوم؟

– سنوات كثيرة صنعت من صاحب الشأن شاباً يافعاً، في حين طوّحت بنا إلى دهليز الشيخوخة!

سكت «مسّي» طويلاً قبل أن يسأل:

– أيعني هذا انقطاع الأمل؟

– لقد استطعت استخراج الملفّ من دهليز النسيان دون عون الأمل الذي تتحدّث عنه!

– ماذا يمكن أن يعنيه هذا؟

– هذا يعني كلّ شيء. هذا يعني أنّنا نستطيع مادمنا

نستطيع أن نريد!

عَمّ سكون مشوّش بهرج رفقاء الرحلة في قاع الوادي. سأل «مسّي»:

– هل تظنّ أنّ وَعْد «الباي» أمرٌ يمكن أن يُعَوَّل عليه؟

– لا تعوّل على أحد، هي الوصيّة التي تصلح أن تكون ختاماً لوصيّة أخرى شائعة هي «لا تثق بأحد!».

ردّد «مسّي»، غائباً:

– لا تعوّل على أحد! لا تثق بأحد!

– مخالفتك في الآونة الأخيرة للشقّ الثاني من الوصيّة، هي التي أصابتك بالعماء لتجد نفسك أسير شقّ الوصيّة الأوّل!

تساءل «مسّي» بدهشة أدهشته، وهو الذي ظنّ نفسه قد فقد القدرة على الدهشة منذ زمن بعيد:

– أيّ شقّ للوصيّة خالفت لأجد نفسي أسير شقّها الأوّل؟

– ألم تثق بقرينٍ مزعوم لتجد نفسك أسير الوعد المزعوم؟

– قرين مزعوم؟

قال نزيه ببرود قاس:

– موسى قرين الانتظار في دائرة السّجلّ المدني الذي هرع إليك بـ «الباي» كي يضع حدّاً لعنائك كما تظنّ، ولكنّه هرع إليك بهذا المخلوق المشبوه كي ينقذ نفسه!



الإصدار ٢٠، يناير ٢٠٠٩

– ينقذ نفسه؟

– لم يستطع أن ينجح في استصدار قرار تعديل اسم ابنته إلاّ يوم أفلح في إقناعك بقبول عرض «الباي» القاضي بخروجك دليلاً لهذه الرحلة مقابل الوعد باستخدام نفوذه لاسترجاع الاسم الضائع!

استنكر «مسّي»:

– هل تريد أن تقول إنّي مجرّد ضحيّة لصفقة؟

– نعم! أنت ضحيّة لصفقة، لأنّ كلّ شيء في مدينتنا ما هو إلاّ صفقة في صفقة. بل أستطيع أن أذهب شوطاً أبعد فأقول إنّك ضحيّة لخيانة إذا شئنا أن نسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقيّة!

– ضحيّة خيانة؟

تململ نزيه في جلسته. قال وهو يحدّق في شمس الشروق كأنّه يغسل مقلتيه بفيوض الضوء:

– ألا يدّعي موسى صداقتك؟

اعترف «مسّي»:

– ذاك صديقي الوحيد الذي لم أتوقّع يوماً أن يخذلني!

قفز نزيه من عرشه على صخرة الجبل. قال وهو يتأهّب للانصراف:

– من حقّك أن تشتكي من سخرية القدر بسبب «إيصال الاستلام»، ولكن من حقّ القدر عليك أن تعبّر له عن امتنانك أيضاً؛ لأنّه قادني للتعرف إلى صديقك المزعوم موسى يوم اضطرّني إلى العمل في دائرة المواصلات قبل أن يقودك إليّ لتعرف منّي حقيقة ساءتك، ولكنّها أحسنت إليك لأنّها أجارتك من أكذوبة!

وافقه «مسّي»:

– صدقت! أعترف لك الآن بأني لا أذكر حتى ما إذا كنت قد حرّرت لي إيصالاً بالاستلام في ذلك اليوم المشؤوم، ولكنّ الحقيقة، على رغم ذلك، غنيمة لسبب بسيط وهو أنها: حريّة!

– لم أكن لأسمّي ما فعل موسى خيانةً لو لم يشترِ خلاص ابنته بوعدك ليبيعكَ، مقابل الوعد، وَهْماً!

قال «مسّي» وهما ينزلان من المرتفع باتجاه موقع المبيت:

– خذلني موسى، ولكن حدسي لم يخذلني لأنّي كنت على يقين بأن وعد هذا «الباي»، لا يُعَوّل عليه، على رغم جهلي بسبب هذا اليقين!

توقّف فجأةً. سأل نزيهاً بفضول طفولي:

– هل تراني جنيتُ عليك يوم وقفتُ بشهادة الميلاد بين يديك؟

تطلّع إليه نزيه بفضول أيضاً. في مقلتيه شَعَّ ظلّ ابتسامة. أحكم لثامه حول وجهه قبل أن يجيب:

– في حَالَينا الجاني ما هو إلا مجنيٌّ عليه، كما أن المجنيَّ عليه ما هو إلا جانٍ أيضاً، لأن كلينا في البليّة، ضحيّة!

دَبّ «مسّي» إلى الأمام صامتاً. قال بعد أن أدركا الحضيض:

– أخضعوا ساعي السّجلّ أيضاً لذات الإجراء التأديبي؛ لأنه شَذّ من أزري، على رغم أنه لم يبخل على موظّفي السّجلّ المدني بالمديح! ويبدو أن حسن ظنّه هذا هو الذي شفع له، فاكتفوا بنقله إلى دائرة أخرى. لقد وجدته مرة على باب رئيس دائرة الأسماء.

– لقد تعاطف الشقيّ معك، والتعاطف في ناموس السّجلّ خطيئة من شأنها أن تجرّ الخراب على تقاليد السِّجِلّ.

في الموقع هرع «الباي» لملاقاتهما بعبارة أطلق عليها لقب البشارة:

– أستطيع أن أزفّ لكما بشارة ستطيل عمر خلوتكما: قرّرنا المكوث هنا يوماً آخر، وربّما يومين!

ابتسم «مسّي». ابتسم نزيه أيضاً. تجاورا لينطلقا عبر الوادي كأنّهما يستجيبان لتلبية عهدٍ مسبقٍ. قال نزيه بعد

اجتياز الموقع:

– يبدو أن «المهندس» عثر على كنز!

– عثور هذا المخلوق على كنز هو الخطيئة التي لن أغفرها لنفسي.

حَدَجه نزيه خلسة. تساءل:

– ماذا توقّعتَ يوم قبلتَ الخروج بهم في هذه الحملة؟

– ظننت أنّي أستطيع بهذا العمل أن أصلح ما أفسده سجلّكم المدني.

– هذا يعني التضحية بالواجب في أوّل امتحان!

تردّد «مسّي». طاف في الأضرحة المبعثرة على سفوح الوادي. قال:

– لا يقعدنا عن أداء الواجب الذي تتحدّث عنه إلاّ وجود الذريّة!

– نرتكب الكبائر، ثمّ نذهب لنعلّق آثامنا على مشجب الذريّة.

تمتم «مسّي»:

– نستمرئ حتى الذلّ طمعاً في الخلود الذي نظنّ أنّنا نستطيع أن نناله بالأبناء!

26

بعد العودة من الرحلة بأيّام ذهب «مسّي» لزيارة وكيل شركة التنقيب عن النفط الملقّب باسم «الباي»، هناك كان عليه أن يتردّد على مقرّ الشركة مراراً، قبل أن يتمكّن أخيراً من الدخول عليه.

استقبله بحرارة أدهشته، ثمّ طفق يتحدّث بحماس عن الرحلة حتّى أنه لم يجد حرجاً في أن يذرف، من فرط الانفعال، دمعة حقيقيّة قبل أن ينتهي إلى القول بأنها النزهة التي لا تُنْسى. لم يفته أيضاً أن يأسف لعدم تمكّنه من استقباله في الأسابيع الماضية، معلّلاً هذه الخطيئة بالمسؤوليات الكثيرة التي تراكمت على مكتبه في أثناء غيابه. كان في بشاشته حميماً إلى حدّ أشعر «مسّي» بالخجل؛ لأنه أساء به الظّنّ يوم شكّك في نواياه. ولكنّ يقينه ما لبث أن انقشع عندما سأل الرجل عن مصير البنود الواردة في العقد المبرم بينه وبين الرجل.

فقد انقلب المرح كآبةً حقيقيّة تلتها عبارة مخيِّبة للآمال:

– هل تظنّ أن بإمكان الأيّام أن تصلح ما أفسدته الأعوام؟

وعندما لاحظ آيَ الخيبة في سيماء ضيفه استدرك:

– أعني أن استعادة اسم صار غنيمةً في قبضة دائرة

الأسماء ليس باليسر الذي نفقد به الاسم!

استنزل على وجهه ذلك القناع المنكر الذي رآه «مسّي» على وجوه موظّفي دائرة السّجلّ المدني ووجوه أشباح لجان السّجلّ الخفيّة قبل أن يضيف:

– نفاد الصبر رذيلة لا تليق بمن لقّن الجيل درس البطولة في الانتظار!

– أخشى أن ما تبقّى من أيّام لن يكفي لمزيد انتظار، لأنّ كلّ أملي في أن أستردّ اسمي قبل أن أموت لكي أملك الحقّ في تثبيت وصيّة هي سيرة حياة كلّ إنسان!

تمتم «الباي»:

– الوصيّة..

– لا وجود لوصيّة بلا اسم، كما يعلم السيّد المبجّل.

– لا أعرف ما جدوى الوصيّة بعد الموت.

– الإنسان وصيّة!

تململ «الباي» في جلسته. اعترض:

– ما أعلمه أن الكثيرين يراهنون على الذريّة كوصيّة ظنّاً منهم أن السلالة تجير من الموت.

– وما رِهان مَنْ لا يملك سلالة في يقين السيّد المبجّل؟

تعجّب «الباي»:

– ومن يكون ذلك الفتى الجريء الذي رافقنا في الرحلة إن لم يكن سليلاً؟

– ليس سليلاً ذلك السليل الذي لا يملك اسماً!

اعوجّ فم «الباي» بابتسامة امتعاض قبل أن يضيف «مسّي»:

– ما أردت أن أقوله إن بوسع السيّد المبجّل أن يبذل جهده لاسترجاع اسم الابن إذا أعجزته الحيلة في استرجاع اسم الأب!

زفر «الباي»، أنفاس الضّيق. قال بلهجة يأس:

– ليت الأمر بيدي!

– لم يجبرك أحد يوم كبّلت نفسك بالوعد.

سدّد إليه «الباي» نظرة طويلة قبل أن يحشرج في وجهه بفحيح:

– لا أنصحك باللّجوء إلى هذه اللغة!

ولكنّ «مسّي» قرّر أن يلقي بآخر سهم في الجعبة:

– أنت تنسى أن في جيبي يرقد قرطاس ممهور بتوقيعك!

رمقه «الباي» باشمئزاز ممزوج بكراهة. قال وهو يجاهد ليكتم غيظه:

– أعددت لك مفاجأة سارة، ولكن يؤسفني أن تتحوّل خسارة بسبب زَلَلِ العضلة المسمومة!

ابتسم «مسّي» بمرارة قبل أن يضيف وكيل شركة التنقيب عن النفط:

– لو صبرت كما أوصيتك لاستلمت منذ الغد عملاً أنت في أشدّ الحاجة إليه. ليس هذا فحسب، ولكنّ الجهود المبذولة في سبيل استرداد الاسمين لم تنتهِ إلى طريق مسدود بعد. ولكنّي الآن أشكّ.

لم يكمل «الباي» العبارة فشكّك «مسّي»:

– أنا أيضاً أشكّ..

هبّ خارجاً. هام في المدينة طويلاً قبل أن يعود إلى البيت. هناك وجد إخطاراً بضرورة الحضور إلى مقرّ السّجلّ المدني.

27

قبل أن يذهب إلى دائرة السجلّ المدني قرّر أن يختلي بالابن. انتظره حتّى الهزيع الأخير من الليل، ولكنّه لم يأتِ. تعمّد أن يتسامح مع بقاء الولد خارج البيت دائماً ظنّاً منه أن هذه الحريّة ستكون له عزاء في محنته، وربّما حتّى بديلاً من شأنه أن يهوّن عليه عزلة الإنسان الذي وجد نفسه نكرةً مجرّدةً من الاسم. ولكن الشقيّ استغلّ هذا التساهل في الآونة الأخيرة ليقضي الليل مراراً خارج البيت. وعندما عبَّرَ له مرّة عن استيائه، جابهه الشقيّ بروحٍ عدوانيّةٍ قائلاً: «أعرف! أعرف! ستقرأ لي الآن موعظة أخرى عن أقران السوء!»، فما كان منه إلاّ أن غفر له هذه الإساءة أيضاً لإيمانه بأنه هو المذنب الأول والأخير لا في حرمانه من الاسم وحسب، ولكن في وجوده الشقيّ على قيد الحياة أساساً. وهو اعتراف يستوجب أن يدفع ثمنه بالتضحية بقناعاته الانضباطيّة الموروثة التي جلبها معه من الصحراء. تلك القناعات المقدّسة التي يروق لحكماء البريّة أن يطلقوا عليها اسم الناموس، ليضيفوا إلى هذا اللّقب الجليل نعتاً أَجلَّ هو «المفقود»، ليقينهم بأنّ الضياع هو برهان قداسة، لأنّ المعبود ذاته كنز مفقود!

هذا الغفران كان بمثابة الخطوة الأولى نحو الزّلل، لأنه

اكتشف أن وجوم الولد الذي ظنّه في البداية انطواءً، ما هو إلاّ قناع لإخفاء مسلك سرّيّ استعار لنفسه بموجبه اسماً سرياً هو «جريء» كبديل لاسم «يوجرتن»، كما علم فيما بعد. ولكنّه رأى في هذه النكتة صَبْينةً خليقةً بالصغار، ولم يكتب له أن يدرك معناها الحقيقي إلاّ في صباح اليوم التالي لتلك الليلة التي انتظره فيها حتّى الهزيع الأخير بلا جدوى.

في ذلك الصباح استيقظ مبكّراً على رغم السّهر. خرج للنزهة في البستان المجاور كما اعتاد أن يفعل في سنوات السكينة التي لم يكدّر صفوها لا ميلاد الولد، ولا الحرمان من الاسم. تسكّع ساعة ثم عرّج على الدكان ليشتري طعام الإفطار. عاد إلى البيت ليجد الابن مازال نائماً. أعد الإفطار ثمّ جلس أمام المائدة وانتظر. انتظر حتّى فقد الشهيّة إلى الطعام فقام ليوقظ وليّ العهد. هزّه مراراً وعندما لم يستجب دلق على رأسه كوباً ملآناً ماءً بارداً كما كان والده يفعل لإيقاظه أعوام الحياة في الصحراء. ولكنّ الابن فزّ كمن لدغته عقرب. تطلّع إلى الأب بغضب قبل أن يتوعّد:

– لا تفعل ذلك مرّة أخرى!

ابتسم الاب بتسامح هذه المرّة أيضاً. قال:

– لا أظنّ أنّي سأضطر إلى أن أفعل ذلك مرّة أخرى، لأنّك

ستضطرّ بعد قليل إلى أن تحزم أمتعتك لتهجر هذا البيت إلى الأبد!

فَرَك الابن عينيه كأنه يريد أن يتخلّص من شبح. سأل بدهشة:

– هل هذه مزحة؟

أجاب الأب ببرود:

– هذه ليست مزحة، ولكنّي قرّرت أن أبيع البيت!

– تبيع البيت؟

– لأستعين بثمنه!

– تستعين بثمنه؟

– لشراء الأباعر!

كان الأب يبتسم بغموض، في حين استيقظ الابن نهائياً من غيبوبة سباته. قال:

– لا تقل لي إنك قررت الهجرة إلى الصحراء!

– وصيّة ناموسنا المفقود تقول: «إثم الآثام أن تتشبّث بالمكان إذا ساء الحال في المكان».

زفر الابن باستخفاف، فأضاف الأب:

– في الصحراء لن تكون في حاجة إلى اتخاذ أسماء سريّة، بل لن تكون في حاجة إلى اتخاذ الاسم أصلاً!

– لا أحسبك تريدني أن أرافقك في هذه الرحلة أيضاً!

– أنت لن ترافقني في رحلة، أنت سترافقني في هجرة!

استنكر الابن بأعلى صوت:

– هجرة؟!

– الهجرة لا تجير من الجور وحده، ولكنّها تهب النبوّة أيضاً!

أطلق الابن ضحكة استهتار عالية. صاح:

– لا أظنّك تريد أن تخلق منّي نبيّاً أيضاً!

– يكفي أن أخلق منك نزيهاً. النزاهة بناموس الأخيار نبوّة!

حدّق الابن في عين الأب لحظة. تمتم:

– يحزنني يا أبي أن أشكّ في قواك العقلية!

رمقه الأب بحزن. سأل:

– هل تنوي أن تزجّ بي في مستشفى الأمراض العقليّة؟

نهض الابن. وقف في مواجهة الأب. سأل جادّاً:

– ماذا يمكن لإنسان مثلي أن يفعل في مكان كالصحراء التي تتغنّى بها كأنّها جنات عدن؟!

– وماذا يمكن لإنسانٍ مثلك أن يفعل في مدينة لا تعترف به؟!

– مدينة لا تعترف بي؟

– لو كانت هذه المدينة تعترف بك، ما بخلت عليك بالاسم!

– ولكنّي ابن هذه المدينة يا أبَتِ، ولم أكن يوماً ابن صحراء!

– بل أنت ابن صحراء شئت أم أبيت، لأن الدّم الذي يجري في عروقك دم صحراء مهما أنكرته!

سكت الابن. كتم انفعاله ببسالة. عاد لمواجهة الأب:

– هل تدري، يا أبي، لماذا أنكرتني هذه المدينة؟

لم ينتظر جواب الأب. أضاف:

– أنكرتني هذه المدينة بسبب خطيئتك أنت!

– خطيئتي أنا؟

– ألم يكن التشبّث بذلك الاسم الغبي «يوجرتن» حماقة بلا مبرّر؟

– الاسم هويّة، ولم يكن يوماً حماقة!

– بتلك الحماقة استنزلتَ على رأسي حكماً بالإعدام لينقلب السّحر على الساحر فتجني أنت أيضاً ما زرعت يداك. وإلاّ ما الفرق في رأيك بين اسم وأيّ اسم آخر؟ لماذا لا يكون اسمي «جريء» بدل «يوجرتن» السخيف هذا؟ ولماذا لا يكون اسمك موسى بدل «مسّي» الأبله هذا؟

التقط أنفاسه ليضيف:

– أليست كلّ الأسماء هي أسماء اللّه؟

بذل الأب جهداً بطولياً كي يكتم غيظه. قال بهدوء:

– الأسماء أسماء اللّه لا بالحرف الميّت، ولكن بالدلالة. والجهل بهذه الدلالة لا يعطي الحقّ في مصادرة الاسم، لأن اسم «مسّي» الذي سخرت منه إنّما يعني في لغتك الصحراويّة الأقدم من كلّ اللغات دلالة نبيلة هي «مولاي» المستعارة من الاسم الجليل «المولى». واسم موسى الذي تريدني أن أحمله بديلاً من «مسّي»، إنما هو تحريف لاسم «مسّي» نفسه، كما أن اسم «المسيح» مستعار منه أيضاً؛ لأن الدلالة التي أحدّثك عنها هي الحَكَم هنا، لا الحرف وحده. وهو ما يعني أن الأسماء كلّها يجب أن تكون أسماء اللّه بالدلالة التي تحويها، لا بالحرف الذي ترتديه!

ساد صمت. قال الابن:

– ما أعلمه جيّداً، هو أن الذهاب إلى ديار الأغراب بلباسٍ غريبٍ عن الأغراب استفزاز، والدليل أنّك لا ترتدي في شوارع المدينة لباس الصحراء الذي كنت ترتديه قبل النزوح إلى المدينة!

– الاسم ليس لباساً كما اتفقنا منذ قليل. كما أن أهل هذه

المدينـة ليسوا أغراباً، لأنـهم إنما نـزحوا يـومـاً مـن ربـوع الصـحـراء، علـى رغم اغترابـهم عن هـوّيتـهم بسبب مخـالـطة الدخلاء!

هيمن السكون من جديد إلى أن تقدّم الابن نحو الأب بسحنة غريبة ليقول:

– أبي! يجب أن تعترف بـأنّك جنيتَ عليّ!

ابتسم الأب باستخفاف. تمتم:

– بلى! جنيتُ عليك يوم جئت بك إلى هذه الدنيا!

استدار خارجاً، ولكنّ الابن لاحقه بصريح العبارة:

– أريدك أن تعلم أنّي لن أرافقك في رحلة الصحراء!

28

ذهب إلى دائرة السّجلّ المدني تنفيذاً للإشعار بالحضور. هناك قالوا له إن سيف الترحيل مازال مسلّطاً على رقبته إن لم يتخذ ما يلزم من تدبير لتسوية وضعه في أقرب مهلة. خرج من دائرة السّجلّ فهام في شوارع المدينة طويلاً قبل أن يجد نفسه أمام البنيان الذي يحتضن في إحدى شققه العليا مكتب داهية التشريع. صعد إلى أعلى ليجد نفسه في قاعة الانتظار المتوّجة بالشعار المجيد عن عدم جدوى سنّ القوانين، لأنها مثل بيت العنكبوت الذي ينفذ منه الأقوياء، ولا يقع في شباكه سوى الضعفاء.

لم يمكث في قاعة الانتظار طويلاً، لأن أمين سر الداهية أقبل عليه ليقوده إلى مكتب رئيسه الذي استقبله بقامته الماردة، وأنفه المكابر، وشفته المتدلية التي تذكّر بشفة البعير.

رحّب به بحرارة، ودعاه للجلوس على كرسي يجاور مكتبه قبل أن يهرش أنفه بسبابته ليقول ضاحكاً:

– كنت أقول لزملاء المهنة دائماً إن سلطان الإنسان أعظم شأناً من سلطان الشرائع، والدليل هو أنت!

لم يفهم «مسّي» الإشارة فأوضح الداهية:

– ها أنت على قيد الحياة من حيث أرادت لك القوانين أن

تكون في عداد الأموات!

أعقب العبارة بضحكة حقيقيّة ليضيف:

– الويل لمن أخذ القوانين مأخذ الجدّ!

احتجّ «مسّي»:

– ولكنّ السلطات لا تسمّم حياتنا إلا بضيق أفق هذه القوانين!

– من حسن حظّك وحظّي أن تسمّم السلطات حياتنا بضيق أفق القوانين، لأننا لا نفلت من جور هذه القوانين إلاّ بسبب ضيق هذا الأفق. ضيق أفق القانون نقطة ضعف القانون الوضعي التي تكفل لنا الإفلات من القصاص دائماً!

عاد يتضاحك بمرح طفولي ويهرش أنفه بسبّابته هرشاً متلاحقاً ليقول:

– والدليل هو أنت!

– ولكنّ سيف الترحيل مازال مسلّطاً على رقبتي ما لم أتخذ التدبير الكفيل بتسوية وضعي، كما أفادتني سلطات السّجلّ منذ قليل!

تطلّع إليه الداهية باسماً. قال بلهجة غموض:

– أنت لا يجب أن تبخل بتقديم الحسنات امتناناً لربّ السماوات، لأنّ لجان السجلّ مازالت تخاطبك بلسان القانون لا

بلسان الأهواء!

– لسان الأهواء؟

– لو حكَّمَ هؤلاء الممسوسون أهواءهم لقطعوا دابرك ودابر أمثالك منذ أول يوم في المساءلة!

سكت. اكتأب. أضاف:

– أعني أنّنا يجب أن نعترف للقانون بالأفضال مهما رجمناه بالغباء، لأن في غيابه يكمن غيابنا أيضاً!

ولكنّ «مسّي» لم يقتنع:

– أيّ الأمرين أهون في يقين السيّد المبجّل: خِلٌّ زورٍ أعوّل عليه فيخذلني، أم عدوّ أعدّ له العدّة فتكفيني اليقظة شرّه؟

رمقه الداهية بإعجاب. ابتسم بغموض قبل أن يقول:

– فهمت. تريد أن تقول إن الاعتماد على النفس أفضل من اتخاذ عكّاز هشّ! ولكنّ خطيئتنا أن نظنّ أن القانون وُجد لينصفنا، لأنّ الشرائع الوضعية ليست شرائع أخلاقية ما ظلّت مسوخاً مشوّهة للشرائع السماوية (ولا أقول الشرائع المنزّلة)، ولكنّ رسالة الشرائع الأرضية تكمن في تعطيل القصاص، أو فلنقل في تأجيله، إلى حين تستيقظ الروح التشريعية المغتربة في كلّ قانون، والتي أطلقت عليها منذ قليل اسم الشريعة الأخلاقية. وهي يقظة عسيرة، لأنها ملتبسة وخبيئة لعلاقتها

الحميمة بأعجوبة اسمها الضمير. فإذا استبسلت الشريعة الأرضية (مستخدمة حرف القانون الذي نصفه بالغباء)، إلى اليوم الذي تستطيع فيه تحكيم الضمير؛ فقد أدّت رسالتها على أكمل وجه. ولهذا يقال إن الأفضل من اللجوء إلى القضاء لكسب قضية، هو تحكيم الضمير حتى لو كان في هذا التحكيم خسارة للقضية؛ لأن التنازل عن حطام الدنيا حتّى ولو كان حقّاً مشروعاً، أهون من كسب ندفع مقابله كنزاً أنفس بما لا يقاس وهو: الوقت!

أنصت «مسّي» بحزن قبل أن يغمغم:

– ولكنّ تجريد الإنسان من الاسم جور يختلف عن جور تجريد الإنسان من حطام الدنيا!

وافقه الداهية:

– لا يستطيع الإنسان أن يتنازل عن الاسم بالطبع كما يتنازل عن حطام الدنيا، أو ما أدراك ما حطام الدنيا، ولكن..

سكت قليلاً. طأطأ. أضاف:

– ولكن ما أردت أن أقوله هو أن الغباء الذي ننعت به القانون عادةً ليس خَصْلة سلبية دائماً، بل في حال مثل حالك هو خصلة إيجابية، لأنّك تستطيع أن تثق بنتائجه إذا أحسنت استخدام حياده!

– حياده؟

– بلى! حكمة القانون في حياده. بل نزعة الحياد هذه هو ما نسميه غباءً من دون وجه حقّ. وهو موقف يبدو لنا خذلاناً عندما يتعلّق الأمر بجرم نراه عن سبق إصرار وترصّد، ولكنّ القانون الذي يتفرّج من موقع الحياد لا يراه كذلك؛ لأنه يرى وجه الجرم الآخر، أو ما يسميه حرف القانون بالأسباب. والحياد هنا، لهذا السبب، ليس غايةً، ولكنّه مهماز لحثّ الجثّة على الاستيقاظ من سباتها ببعث روح اللّه في الحرف الميّت لتتولّى الأمر نيابةً عن القانون البشري!

أخرج «مسّي» من جيبه العقد المبرم بينه وبين وكيل شركة التنقيب عن النفط الملقّب بـ «الباي». وضعه أمامه قائلاً:

– ما رأي القانون في هذا النصّ؟

انكبّ الداهية فوق العقد. قرأ وهو يهرش أنفه بسبّابته ويبتسم. انتهى من القراءة ليتطلّع إلى جليسه لحظات. قال:

– لا قيمة قانونيّة لهذا العقد!

– لماذا؟

– لأن العقد المبرم بين شخصين لا يملك القوة القانونيّة ما لم يكن مصدّقاً من هيئة قانونيّة!

سكت لحظة. أضاف:

– هذا ليس كلّ شيء!

سكت مرّة أخرى. أضاف ببرود:

– إذا كان العقد لا يملك القوة القانونيّة من الناحية الشكليّة، فإن محتواه كفيل بتعريض صاحبيه للمساءلة القانونيّة أيضاً!

سأل «مسّي» بدهشة:

– المساءلة القانونيّة؟

– البند الذي ينصّ على إلزام الطرف الأوّل التّوسُّطَ لدى السلطات لاستعادة الاسم المصادر لا يعرّض الطرفين للمساءلة فحسب، ولكنّه كفيل بزجّكما في السجن!

أفلتت من «مسّي» ضحكة، في حين هرش الداهية أنفه!

29

ذهب إلى مقهى السماسرة. هناك اتّفق مع أحد أساطين هذه المهنة على عرض البيت للبيع.

كان عليه أن يختار الرحيل إذا شاء أن يجتنب الترحيل. كان عليه أن يستجير بصحرائه إذا شاء ألاّ يجد نفسه غريباً في صحراء الأغراب. أحدهم روى له كيف كانت السلطات ذات الاختصاص تحشر كلّ المشبوهين في بطون عربات الشحن لتتخلّص منهم خارج الحدود، تماماً كما تتخلّص عربات القمامة من شحنات الفضلات خارج حدود المدينة. هناك تتركهم السلطات لقدرهم، لينجو من كُتب له أن ينجو، ويهلك من قُدّر له أن يهلك، ولكنّهم لا يعودون من حيث أقبلوا أبداً، كأنّهم لم يهجروا أوطانهم بحثاً عن فردوسٍ أرضيٍّ يمكن أن يخذلهم كما يخذل عادةً كلَّ شيء مَتَّ إلى الأرض بصلة. ولكنّهم هجروا أوطانهم تنفيذاً لوعدٍ مجهولٍ، أو تلبيةً لنداءٍ سماويٍّ، مبرهنين بذلك على حقيقة الهجرة التي لم تكن يوماً نزهة، أو رحلة، ولكنّها رسالة دينيّة لا تختلف عن أيّ رسالة سماوية، لأنها خيار أكبر من الفوز بحطام الدنيا، أو أيّ نعيم أرضيّ، ولكنّها قدر. هي قدر، ربّما لأنّها جنس فريد من بعث. ولهذا السبب يفضّل بعضهم الموت في الخلوات عطشاً على أن

يعودوا إلى أوطانهم التي هجروها. أحد الأغيار روى له أيضاً كيف خاطب أحد هؤلاء سجّانه قائلاً: «عبثاً تُتعبون أنفسكم وتُنفقون الأموال الطائلة على حشرنا في المعسكرات، وأموالاً أكثر على ترحيلنا، لأنّنا سنعبر الحدود في كلّ الأحوال، وسنعود لنكلّفكم ثروات أخرى لإيوائنا والإنفاق علينا ما دمتم تصرون على بناء المعسكرات، والإنفاق على حشد الجيوش لتثبيت أقدام خرافة الترحيل!».

منطق صاحب مثل هذه الحُجّة قد يستثير التعاطف، وقد يوقظ إعجاب سجّانيه، ولكنْ هيهاتَ أن يُفْهَم كما يجب أن يُفهم، لسببٍ بسيطٍ وهو أنه لا يفهم نفسه هو نفسه لما في اللّهفة إلى الهجرة من غموض: لهفة مجبولة بإغواء لا يقاوم، ولكنّه غريب بطبيعته عن سجيّة مريد الاستقرار، لأن من شيمة خصمه مريد الترحال الذي اكتشف حقيقة الهجرة باحتراف الهجرة، وهدهد جرثومة الحريّة التي تسري في الدّم. ويوم يستيقظ في وجدان صاحب الاستقرار هذا الطلسم؛ فإنّ ذلك الزلزال برهان بعثٍ، ودليل الرحمة التي شاءت له الخلاص بالميلاد الثاني الذي لا ينال إلاّ بالحريّة. والهجرة هي كلمة السرّ في محراب الحريّة.

ولهذا فإن يقظة هؤلاء المتسللين يقظة عمياء في أغلب

الأحيان، لأن جلّهم يسلّم زمام أمره لسلطان الهجرة ظنّاً منه أنه إنّما يهاجر طلباً لأسباب حياة أفضل، دون أن يعي حقيقة الحافز الخفي الذي دفعه إلى هذه المغامرة المميتة؛ لأن الإنسان عادةً لا يخاطر بالحياة لمجرّد الطمع في نيل خبزٍ لم يكفِ وحده يوماً لإحياء الإنسان، لم يكفِ وحده يوماً لتحقيق السعادة للإنسان! والدليل؟ الدليل هو أهل الصحراء الذين لا يهاجرون أبداً خارج وطنهم الصحراء. وحتّى إذا هاجروا فإنّهم لا يهاجرون إلاّ إلى الواحات التي لم تكن يوماً سوى جزرٍ في بحر الخلاء، فإذا حدث خلل واضطرّتهم الصحراء إلى الهجرة، فإنّهم يستجيرون بتلك المدن التي لم تكن يوماً سوى الامتداد الطبيعي لحميمتهم الصحراء. كأنّ الارتواء من ينابيع الحريّة هو الذي سنّ الناموس الذي حرّم على قبائل الصحراء اجتياز الحدود الصحراوية وعبور المياه سواء أكانت نهراً أم بحراً، لما في هذا العبور من إثم؛ لأنه في النهاية ما هو إلا خيانة لمعبودتهم الخالدة: الحريّة!

في الطريق إلى البيت تخيّل «مسّي» نفسه في جوف الشاحنة وهي تلفظه خارج الحدود. قرأ في سرّه تميمة امتنان، لأن الوطن كلّه مطوّق بحدودٍ صحراويةٍ (باستثناء الشمال)، لن يعدم الحيلة في عبورها عائداً، وهو الذي لم يتعلّم السباحة

إلاّ في بحور الصحراء. يستطيع أن يعبر عائداً بالطبع، ولكن ماذا سيفعل إذا قبض عليه حرس الحدود ليجد نفسه محشوراً في معسكر المتسلّلين من جديد؟ ألن يصير له المعتقل مأوىً مشروعاً هذه المرّة ليفقد، كمتسلّل، الحقّ الأخلاقي في الهويّة الوطنية بعد أن فقد هذا الحقّ بالقانون الوضعي؟

30

عاد «مسّي» ليجد البيت خاوياً من متاع الابن.

تركه نائماً عندما خرج في الصباح ليأتيه من المصرف بنصيبٍ من مال، على رغم تضعضع مدّخرات الأعوام بسبب تعطيل مفعول الحانوت وتبخّر الآمال في العمل. ولولا المبالغ المستحصلة من بيع الحانوت لاضطرّ إلى رهن البيت أيضاً كي يطعم وليّ العهد العاطل عن العمل، بل والفاقد لكلّ أمل. ولكن ها هو الوريث الذي راهن عليه يخذله مرّة أخرى فيفرّ من البيت خِفْيةً.

في ذلك المساء انهار «مسّي» على سرير «يوجرتن» العاري من الفراش، في غرفته الخالية من الأمتعة، في بيتٍ خاوٍ مغمورٍ بالظلمات.

لم يستشعر طعنةً في القلب، ولكنّه استشعر غياب القلب. غاب القلب من الجسد فانتحبت الروح بنزيف مميت. تزعزع البدن بالحمّى فاستشعر وهناً عميقاً. كان يرتجف وينزُّ عرقاً عندما هبّت لنجدته الذاكرة بوصيّة الحكيم القديم كأنّها شرارة وحي: «لا جدوى من المجيء بالأبناء إلى الدنيا، لأنّ الفلاح في تربيتهم باهظ الثمن، فإنْ لم يحالفنا الفلاح، فإنّ الألم الذي نجنيه من جرّاء هذا الإخفاق لا يُقارن بأيّة بليّة!».

لا يدري كم من الوقت استغرقت جلسته في الجوف الملفوف بالظلمة، ولكنّه لم يفق من غيبته إلاّ حين سمع طرقاً على الباب. هرع إلى الباب ليقينه بأن الطارق لن يكون غير الوريث الضائع، ناسياً أن بوسع الوريث أن يستخدم المفتاح إذا قرّر العودة، لا طرق الباب.

في العتمة تبيّن جاره العجوز صاحب دكّان الجوار. حدّق فيه طويلاً قبل أن يستدرك ويأذن له بالدخول. لحظتها فقط اكتشف أنّه كان طوال الوقت يجوس في الظلام كعساعس الخلاء. أشعل النور في الممرّ وقاد ضيفه إلى غرفة الجلوس. هناك فقط قرأ سيماءه في سيماء جاره العجوز. كان المسكين يتطلّع إليه بدهشة مجبولة بوجع قبل أن يغمغم:

– هل أنت مريض؟

هَمّ بأن ينفي، ولكنّه تراجع في آخر لحظة ليقول:

– نعم، نعم! أنا مريض..

زفر وهو يعاند الرعدة ليضيف:

– مريض منذ اليوم الذي أتيت فيه إلى الدنيا بولد طمعاً في إنجاز خرافة الخلافة في الأرض!

تابعه الشيخ بقلق، في حين أضاف «مسّي»:

– والأقدار، كما تعلم، لا تظلمنا عندما تقتصّ منّا بالطمع!

تمتم الجار:

– هل حدث مكروه؟

– المكروه حدث منذ اليوم الذي عقدت فيه الصفقة الخاسرة مع مولانا القدر: أهبه عبداً يستطيع أن يصير بوجوده ربّاً مقابل أن يهبني خلوداً!

برطم الشيخ بعبارة مبهمة كأنّها تعويذة فأكمل «مسّي»:

– الأمر كما ترى لم يكن سوى صفقةٍ في صفقة، وثمن الصفقة دائماً قصاصٌ حتى لو كانت صفقةً مع الربّ!

– أستغفر الله!

قالها العجوز بوجل، ثم أضاف:

– ولكن هل حدثت بليّة؟

قال «مسّي» بلهجة يأس:

– الابن الذي ظننت أنه خليفتي في الأرض أنكرني!

– أنكرك؟

– فرّ من البيت!

طأطأ العجوز لحظة. تمتم:

– توقعت أنْ يفعل ذلك!

ساد صمت. سأل «مسّي» بلهجة استنكار:

– توقّعتَ أن يفعل ذلك؟

سكت الجار زمناً. قال بلهجة ذات معنى:

– رفقاء السوء!

هيمن السكون من جديد. أضاف الشيخ:

– تهون البليّة لو كان خروجه مجرّد خروج..

سكت. استدرك:

– أعني مجرّد فرار من بيت..

حَدَجه «مسّي» بنظرة استفهام، ولكنّ الشيخ لم يستجب فسأل:

– الحقّ أنّي لم أفهم ماذا تريد أن تقول.

تردّد العجوز. تململ. وشوش كأنّه يذيع سرّاً:

– الأبناء في سنّ الطيش لا يهجرون مأوى الآباء إن لم يضمنوا وجود مأوىً آخر أكثر إغواءً من مأوى الآباء. إنّهم كالنساء اللائي لا يهجرن رجلاً إن لم يضمنّ وجود رجل آخر بالانتظار!

سكت فجأة. مال نحو جليسه حتّى كاد ينكبّ على وجهه. تمتم:

– المحافل السريّة!

تبادلا نظرة طويلة قبل أن يردّ «مسّي» مستنكراً:

– المحافل السريّة؟!

– المحافل السريّة عقيدة هذه الأيّام كما تعلم!

غاب «مسّي» بعيداً، ردّد بذهول:

– المحافل السريّة عقيدة هذه..

سكت. غمغم:

– هل تريد أن تقول إن «يوجرتن»..

بلع ريقه بعسر. أضاف:

– يمكن أن يكون عضواً في محفل من محافل هذه الأيّام؟

– وماذا يمكن أن ننتظر ممّن فقد الأمل، وتعطّل عن العمل؟

سكت الشيخ لحظة. أضاف:

– أمّا فرصة ابنك هنا فأكبر؛ لأنّ فقدان الاسم حُجّة أقوى!

غزا الشحوب سيماء «مسّي». نكس أمام ضيفه صامتاً. قال بلكنة من يخاطب نفسه:

– إذا صحّ ما تقول فلم أفقد الابن مرّة واحدة، ولكنّي فقدته مرّتين!

هوّن عليه الجار:

– في كلّ بيت هذه الأيّام سليل شقيّ. في عائلتنا أيضاً ولد ضَلّ السبيل طويلاً. وكان يمكن أن ينتهي به الأمر إلى الاستقرار وراء القضبان، لو لم يسجنه الأب في البيت مسلسلاً في الحديد عاماً كاملاً ليقلع أخيراً!

– هل تظنّ أنه أقلع؟

– أظنّ أن الإدلاء بالاعترافات أكبر دليل على التوبة!

– يُقال إن هذه المحافل لا تختلف عن الأفيون الذي نُدْمِنُه إلى الأبد إذا تعاطيناه مرّة!

عَمَّ الصمت. اعترف الشيخ:

– هذا الابن الضالّ هو حفيدي، ولم أكن لأجرؤ لأتّهم ابنك بالانخراط في مثل هذه المحافل المشبوهة لو لم يعترف الحفيد برفقة ابنك في الانتماء إلى التنظيم ذاته!

سكت الشيخ. أضاف بنبرة عزاء:

– على رغم كلّ شيء فإن التوبة ممكنة مهما بلغت درجة الإدمان، والدليل هو حفيدي الذي أستطيع أن آتيك به ليسمعك الحقيقة بنفسه!

قال «مسّي» بمرارة:

– كيف أستطيع أن أهديه إذا كنت لا أستطيع أن أهتدي إليه؟!

قال العجوز:

– الحفيد سوف يدلّك عليه!

لاذ «مسّي» بالصمت. عبّر عن شكّ:

– ولكن ماذا يريد هؤلاء الأشقياء بمحفلهم اللّعين؟

– بالمحفل يريدون التصدّي للمحفل!

– التصدّي للمحفل؟

– بالمحفل يخطّطون لنسف بنيان السّجلّ المدني!

– نسف بنيان السّجلّ المدني؟

– هذا ما اعترف به الحفيد!

ساد الصمت. دام الصمت طويلاً فاستأذن العجوز للانصراف. في المدخل دَسّ في يد «مسّي» مظروفاً سميناً قبل أن ينطلق ليغرق في الظلمة كأنّه يلوذ بالفرار.

في المظروف وجد «مسّي» مبلغاً سخياً من المال.

31

قاده حفيد الجار إلى الحقول. عَبَرَ به أطراف المدينة، حيث تتشابك أحراش النخيل وأشجار الصنوبر تتخلّلها بعض أشجار الزيتون، إلى أن وقف به خارج سور قديم تعتليه أسلاك شائكة ليقول مشيراً إلى باب حديدي رمادي اللون:

– جريء يسكن مع رفقائه خلف هذا الباب. أمّا أنا فلا أستطيع أن أتقدّم خطوة واحدة إلى الأمام.

لاحظ «مسّي» أن الفتى بدأ يرتعد قبل أن يضيف:

– لو اكتشفوا أمري فسينتقمون مني شرّ انتقام!

ثم استدار ليلوذ بالفرار.

وقف «مسّي» لحظات يستطلع المكان، ثم تقدّم ليطرق الباب. كان السكون طاغياً إلى حدٍّ سمع فيه صوت الصمت الذي اعتاد أن يتلذّذ بالإنصات إليه في الصحراء. لم يستجب لقرع الباب أحد، فتناول حجراً وقرع به الباب بعنف أكبر. بعد لحظات خُيِّل له أنه سمع هسيساً مكتوماً، ثمّ وشوشة قبل أن يتضح ارتطام الأقدام بالأرض. سأل صوت من وراء الباب الحديدي:

– مَن الطارق؟

كان صوتاً مشوباً برطانة من رطانات المهاجرين الذين

يروق لكهنة لجان السجلّ المدني أن يطلقوا عليهم اسم «المتسلّلين». أجاب «مسّي»:

– اسمي «مسّي». أريد التحدّث إلى «يوجرتن»!

– تريد التحدّث إلى..

سكت الصوت قبل أن يكمل فاستدرك «مسّي»:

– إلى جريء! أنا والد جريء!

سكت الصوت فعمّ السكون المشحون بأغنية الصمت. غنّى السكون طويلاً قبل أن تنفتح كوّة في الباب الحديدي ليطلّ منها وجه الابن، أشعثَ، ملوّحاً بالشمس، موسوماً بالإعياء، وبسيماء أخرى كأنّها الشيخوخة؛ كأنّ الأبناء يهرمون ما إن يخرجوا من بيوت ذويهم، لأنّهم إن لم يتسلّحوا بوسم الشيخوخة في خروجهم إلى الدنيا، فإن الدنيا ستستخفّ بهم لِتُنْزِلَ بهم الهزيمة في أول مبارزة.

انفتح الباب ليخرج الابن إليه بدل أن يدعوه للمرور إلى الداخل، فسخر الأب:

– لا تريد أن تدعوني إلى الدخول لكي لا أرى بيتك الجديد؟

غمغم الابن باقتضاب وهو يسير به عبر دربٍ يمرق بين أشجار صنوبر عالية:

– لا أرى لذلك داعياً.

سارا صامتين خطوات. قال الأب:

– ها هم أقران السوء يقدّمون الدليل على قدرتهم في اختلاس ابن من أبيه!

غمغم الابن:

– ليسوا بحاجة إلى تقديم الدليل، لأنّك لم تكن لي يوماً أباً حتى أكون لك مرّة ابناً!

حدجه الأب بحزن. قال:

– هل جريمة أن أعبّر لك عن خشيتي من أن تكتب لنفسك اسماً يكون وصمة عار في جبين الاسم؟

– ألم تسمعني الأساطير عن ضرورة أن نصنع أسماءنا بأنفسنا على طريقة أسلافك في الصحراء، بدل أن يلبسنا الأغيار أسماء على سبيل الإعارة؟

– ليس بطولة أن نصنع لأنفسنا اسماً ككلّ الأسماء، إنما البطولة أن نصنع لأنفسنا اسماً بطوليّاً!

ابتسم الابن باستخفاف. قال:

– ما كان بطولةً بالأمس لم يعد بطولةً في عُرْف هذه الأيّام، وما صار بطولةً اليوم لم يكن ليكون بطولةً في عُرْف الأمس!

– ما كان بالأمس نزاهةً مازال نزاهةً، وسيبقى إلى الأبد

نزاهةً. وما كان بالأمس أداءً لواجب، مازال أداءً لواجبٍ إلى اليوم، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

عاد الابن يبتسم بامتعاض. قال:

– ولكنّ الاسم الذي جنيت عليّ بسببه لم يعد دليلاً على الهويّة كما كان يوماً. وعلى رغم ذلك بعتني بهذا الثمن البخس دون أن يرفّ لك جفن!

– لو كان الثمن الذي بعتك به بخساً، كما تتخيّل، ما فقدتُ اسمي بسببه لأفقد، بعد هذا الفقد، حياتي. فهل قرّرت معاقبتي على خطاياي بالفرار من البيت؟

– خرجت من البيت لأمكّنك من إخلائه. ألم تقلْ إنّك تنوي عرض البيت للبيع؟

– قرّرتُ عرضَ البيت للبيع بعد أن فقدتُ الحيلةَ والوسيلة للحياة في هذه المدينة!

سكت الابن. أدّى الدرب إلى حقل فسيح. استدار الابن على عقبيه فسار الأب إلى جواره، يختلس نحوه النظر بين الحين والحين، إلى أن قال الابن:

– لم أكن لأعترض على بيع البيت، ولكنّ اعتراضي هو على نيّتك في أن تجرجرني معك إلى معشوقتك الصحراء كأنّي ملك يمينك!

– قرّرتُ أن نترافق في رحلة الصحراء حرصاً عليك، لأنّك في الصحراء تستطيع أن تصنع لنفسك اسمك، أو فلنقلْ، تستطيع أن تستعيد اسمك الضائع. أمّا هنا..

قاطعه الابن بخشونة:

– لم أعد في حاجة إلى وصاية أحدٍ كي أصنع لنفسي الاسم الذي أضعته بسببك!

تهكّم الأب:

– هل هو ذلك الاسم الذي تريد أن تصنعه بالانخراط في المحافل المشبوهة؟!

توقّف الابن. رفع رأسه نحو الأب لأوّل مرّة منذ اللّقاء. حدّق في عين الأب، ولكنّ الأب رمقه بصرامة فأشاح ببصره بعيداً. عاد يسعى في الدّرب. قال منكّس الرأس:

– أظنّ أنّ الدّفاع عن النفس هو الخطوة الأولى لصنع الاسم!

– هل تسمّي التخطيط لنسف السجلّ المدني دفاعاً عن النفس؟

ابتسم الابن بخبثٍ هذه المرّة، ولكنّه لم يتوقّف. أجاب:

– لماذا لا يُنسف السجلّ المدني إذا كانت لجانه تبيح لنفسها أن تُحيي عندما تريد أن تُحيي، كما تبيح لنفسها أن تُميت عندما تريد أن تُميت؟

زأر الأب كما يفعل في كلّ مرّة يستجير فيها بالناموس الصحراويّ الضائع:

– وصيّة الأسلاف تقول: إيّاك أن تفعل شيئاً على سبيل الانتقام!

– وعلى رغم ذلك لم تكن حياة هؤلاء الأسلاف سوى انتقامٍ في انتقام!

أفضى الدرب إلى الباب الحديدي. أخرج الأب مظروفاً من جيبه. قدمه للابن قائلاً:

– جئتك ببعض المال!

ولكنّ الابن تطلّع إلى المظروف دون أن يمدّ يده لتناول المال. قال:

– لست في حاجة إلى مال!

تبادلا نظرة طويلة قبل أن يعيد الأب المظروف إلى جيبه. قال الأب وهو يتأهّب للانصراف:

– ما أردت أن أقوله لك هو أنّنا أضياف في بيتٍ اسمه الدنيا، وليس من حقّ الضيف أن يعمل على تغيير حال بيتٍ هو فيه مجرّد ضيف!

ابتسم الابن. سأل بعد وهلة:

– هل ستشي بي؟

ولكنّ الأب لم يُجِبْ. مضى عبر الدرب المؤدي إلى الحقول منكّس الرأس.

32

جاء لزيارته نزيه الفاضل.

جاء ملفوفاً بقناع الصحراويين كما رآه آخر مرّة، فمازحه ما إن تواجها في غرفة الجلوس:

– يبدو أنّك استمرأت قناع الصحراويين إذْ لم تجد حرجاً في ارتدائه حتّى في شوارع المدينة.

أحكم نزيه اللثام حول وجنتيه قبل أن يقول:

– ماذا يفعل من أخفق في إخفاء النوايا بقناع الوجوم على طريقة أهل السّجلّ المدني غير أن يتقنّع بلثام القماش على طريقة الصحراويين؟

– ولكنّ قناع أهل الصحراء يخفي وجهاً، ولكنْ هيهاتَ أن يُفْلح في إخفاء النوايا.

تفكّر نزيه لحظات. عبث بطرف اللثام. قال:

– الإخفاق في إخفاء النوايا بليّة كبيرة، لأنّه..

أغمض عينيه لحظةً قبل أن يضيف:

– لأنه تعرية للروح!

تابعه «مسّي» باسماً. علّق:

– ورجل يعرّي روحاً، في عُرْف الصحراء، أرذل من امرأة تعرّي جسداً!

ابتسم نزيه أيضاً. سأل:

– ألهذا السّبب يستميت الصحراويون في إخفاء وجوههم بأقنعة القماش، ظنّاً منهم أنّها تستطيع أن تخفي الروح أيضاً إلى جانب الوجه؟

– واضحٌ أنّهم أخفقوا في هذا وإلاّ لما احتاجوا إلى أن يستبدلوا بقناع القماش قناعاً آخر أقوى مفعولاً!

– قناعاً آخر؟

ابتسم «مسّي» بغموض. اختلس لجليسه نظرة خفيّة. تمتم:

– العزلة!

ترنّح نزيه في مقعده كمجذوب في حلقة وَجْد. تَغَنّى:

– العزلة سلاح من فشل في قهر روح الطفولة!

– ولكنّ التحرّر من روح الطفولة أيضاً خطيئة.

– التحرّر من روح الطفولة خطيئة في ناموس الخالق، ولكن ليس في عُرْف خلق الخالق.

سكت بلسانه، ولكنّه مضى يتكلّم بجسده. ترنّح زمناً قبل أن يضيف:

– لو أحسنت إخفاء النوايا على طريقة كهنة السّجلّ المدني، ما طُرِدْتُ من مملكة السّجلّ المدني.

ترنّح بجسده كطفلٍ في أرجوحة قبل أن يضيف بنبرة أسى:

- ويبدو أنّي لن أُحْسِنَ إخفاء الروح الذي تتحدّث عنه؛ لأنّي لم أقبل عليك إلاّ لأعرّي روحاً!

انقلب الرجل في عيني «مسّي» درويشاً في لحظة، لأنه لم يكتفِ بالرقص جسداً، ولكنّه تغنّى بأنينٍ مكتومٍ كأنّه نوبة حنين. قال بصوت اللحون:

- ما ضرَّنَا أن نخسر غنيمة الدنيا بتعرية الروح، إذا كنّا سنكسب سكينة الروح بتعرية الروح؟

انتقلت عدوى الإيقاع إلى «مسّي». ترنّح أيضاً دون أن يدري، إلى أن قال نزيه:

- أقبلت عليك لأدْليَ باعتراف..

لم ينتبه «مسّي» فأوضح صاحب الوَجْد:

- الحجر!

لم يستجب «مسّي» أيضاً، فأضاف المجذوب:

- الحجر المقدّس الذي حدّثتني عنه..

تمتم «مسّي» كالمأخوذ:

- الحجر المقدّس الذي حدّثتك عنه..

كانا يتراقصان كأنّهما يستجيبان للحنٍ جنونيٍّ خفيٍّ لا يسمعه سواهما. وربّما كانت نوبة الوجد حيلة نزيه لتيسير القول العسير الذي لم يلبث أن جاهر به في ذروة النوبة:

– صحراؤك اليوم، بغياب الحجر المقدّس، كيان بلا روح!

توقّف «مسّي» عن الجذب. ولكنّه لم يُفقْ بعد من الغيبوبة لحظة سأل:

– ماذا تريد أن تقول؟

– حجرك تخلّى عنك، لأنك تخلّيت عنه!

– لا أفهم..

توقّف نزيه أيضاً عن الجذب. قال غائب البصر:

– «الباي» تمكّن من الحجر!

غزا الشحوب سيماء «مسّي». تلاحقت في صدره الأنفاس. تمتم:

– لا أصدّق!

بدأ نزيه يسرد الرواية. قال إن «الباي» (بعون خبير طبقات الأرض المزعوم)، استولى على التحفة الأثرية النفيسة التي يروق لـ «مسّي» أن يطلق عليها اسم «الحجر المقدّس»؛ ليقوم بتهريبها إلى ما وراء البحار. قال أيضاً إن تمديد فترة إقامتهم في وادي الأسلاف في أثناء الرحلة لم يكن سوى ذريعةٍ لتنفيذ النيّة المبيّتة للاستحواذ على الكنز.

سكت نزيه ليجد أن «مسّي» كان يرتجف ويتصبب عرقاً. قال نزيه بلهجة اعتذار:

– لم أكن لأنقل لك خبراً كهذا لولا يقيني بأن ما حدث كان مكيدة مدبّرة لا ضدّ الصحراء وحدها، ولكن ضدّ الوطن أيضاً!

دام الصمت طويلاً قبل أن يفلح «مسّي» في النطق بسؤال:

– ولكن كيف حدث هذا؟

– لقد استغفلنا اللئيم في أثناء جولاتنا في أعالي الوادي وأسافله.

كان «مسّي» يرتجُّ عندما سأل:

– ولكن كيف استطاع أن يستغفل بقيّة أعضاء الفريق؟

اختلس نزيه إلى جليسه نظرة قبل أن يجيب:

– ليس في حاجة إلى أن يستغفل أعضاء الفريق.

– ماذا تعني؟

– أعضاء الفريق كانوا شركاء في الصفقة!

– شركاء في الصفقة؟

– بالطبع كان ما حدث صفقة. هل تظنّ أنّ بوسع إنسان أنْ يسكت عن عمل كهذا من دون أن يقبض الثمن؟

بدأت أسنان «مسّي» تصطكّ. تمادى الشحوب في سيماء وجهه. لمع وميض الجنون في مقلتيه. حشرج بعسر:

– ولكنْ كيف استغفل «يوجرتن» أيضاً؟

نكّس نزيه رأسه ليلوذ بالصمت. سأل «مسّي» بعسر أكبر:

– هل تريد أن تقول إن «يوجرتن» كان..

ابتلع ريقه بعسر شديد كي يكمل:

– شريكهم أيضاً؟

انتظر «مسّي» طويلاً قبل أن يسمع الجواب:

– «يوجرتن» لم يكن شريكهم في الغنيمة فحسب، ولكنّه كان دليلهم الذي قادهم إلى موقع الحجر أيضاً!

33

استخرج المُدْيَة من جوف الصندوق القديم. سحب النَّصل من الغمد الجلدي المحفور برموز غامضة كغضون الشيخوخة، فتبدّى اللسان المزدوج رمادياً، كئيباً، كأنّ مدفن الأعوام نال من فتنته فَوَأَدَ فيه روح الإغواء والنزوع إلى العدوان.

تذكّر يوم هاجمه الضبع ليستولي منه على القطيع. كان في عامه السابع أو الثامن. خرج بالقطيع إلى المرعى بعد ظهيرة أحد الأيّام، فاعترضه ذلك الوحش القبيح قبيل الغروب بقليل فأصاب الأغنام بالشلل. استعان بحنجرته ليفزعه ظنّاً منه أنّه فصيلة نادرة من فصائل الذئاب، ولكنّ الوحش استشرس أكثر مع كلّ صرخة ليهاجمه مكشّراً عن أنياب كأنصال السكاكين، وفِنْطِيسةٍ كريهة سوداء لم يرَ لها مثيلاً قبل ذلك اليوم. استبدل بالصراخ الحجارةَ، ولكنّ المقاومة لم تزد الوحش إلاّ عدواناً: عَزَلهُ الوحش عن القطيع مراراً ليختلي بالغنيمة، ولكنّه كان يحتال في كلّ مرّة لاسترجاع القطيع ومطاردته صوب المضارب. بعد مسافة، استجار اللئيم بحيلة جديدة لينتهب من بين يديه القطيع: كان يوليه قفاه ليوهمه بالابتعاد عن الموقع، ولكنّ الحيلة لم تنطلِ عليه؛ لأنّه لاحظ أنه لا يبتعد في حركته إلى الأمام، بل يقترب متقهقراً مشياً إلى الوراء. وعندما

يئس الداهية عاد إلى استخدام غاراته الجنونية التي يكشِّر فيها عن أنيابه الفظيعة الشبيهة بأنصال السكاكين. ولو لم يهرع لنجدته الأبُ مستجيباً لصيحاته المكرورة، لفتك به ذلك التّنين في غسق ذلك اليوم.

في اليوم التالي قدّم له الأب تلك المُدْيَة مكافأةً له على الرجولة. قال له أيضاً إن امتلاك المُدْيَة لا يكفي، لأن الأفضل للرجل أن يتنقّل في الخلاء أعزلَ من السلاح على أن يمتلك سلاحاً لا يتقن استخدامه. كانت تلك العبارة مقدّمة لتلقّي دروس استخدام المُدْية. درّبه على استخدام المدية طويلاً، ولم يتوقّف عن التمرين إلاّ في اليوم الذي استطاع أن ينحر بالمُدْية ذئباً!

يومها قال له الأب إن المدية سوف تكفيه شرّ الوحوش، ولكنها لن تجيره من شرّ وحوش الإنس! لاتّقاء شرّ هؤلاء يجب تعلّم سلاح آخر هو السيف. ولكن لم يُكْتَبْ له أن يتعلم استخدام السيوف؛ لأن الأب رحل قبلَ أن يحقّق له هذه الأمنية.

ثبّت «مسّي» المُدْية إلى معصمه الأيسر بسير جلدي، ثمّ أخفاها بكُمّ القميص قبل أن ينطلق. ذهب إلى مقرّ شركة التنقيب عن النفط. هناك اعترضه العسس، فرابط على رصيف الشارع المقابل. مكث هناك يوماً كاملاً وهو يترصّد شبح

«الباي»، ولكنّ الرجل لم يظهر. انتهى الدوام الرسمي فلفظت الدوائر موظّفيها إلى الشوارع، ولكنّ «الباي» لم يظهر. خَمّن وجود باب خلفي يستطيع الوغد أن يستعمله على عادة المديرين وأكابر الدوائر، فتسلّل خلف البنيان ليترصّده هناك، ولكن بلا جدوى. حام حول المبنى على أمل أن يكون الداهية قد استبدل بدوام الصباح دوام العشيّ إمعاناً في الحرص، ولكن بلا جدوى أيضاً. هجم الليل فانطلق «مسّي» إلى أقرب مخفر شرطة في المدينة.

في المخفر قال لضابط المناوبة إنه يريد تحرير محضر بشأن خطير. ويبدو أن عبارة «شأن خطير» أيقظت ذلك المخلوق الكسول اللامبالي من خموله الأبدي، لأنه حدج المواطن «مسّي» باهتمام قبل أن يتساءل:

– شأن خطير؟!

– بلى!

– هل تعني ما تقول؟

– بالطبع!

– هل تدري ما معنى عبارة «شأن خطير» في معجمنا؟

نَفِدَ صبر «مسّي»:

– جئت طوعاً لتحرير محضر، لا لأجد نفسي موضوعاً

لمحضر!

قال ضابط المناوبة وهو ينتصب واقفاً:

– أردت فقط أن ألفت انتباهك لئلاّ ترتكب خطيئة الكثيرين الذين يستخدمون عبارة «الشأن الخطير» استخداماً خاطئاً ليضيّعوا وقتنا، لأنهم لا يدرون أن هذه العبارة في لغتنا حكر على الشأن الذي يهدّد الأمن العام!

– ما سأرويه لك يهدّد الأمن العام بالفعل، بل ويهدّد أمن الوطن!

تمتم رئيس الشُّرَط وهو يفتح الدرج ليستخرج الورق الرسمي:

– هل أنت على يقين؟

انحنى على الورق ليدوّن التاريخ بيد راجفة ثمّ سأل:

– الاسم الكريم..

– مسّي بن مسّيبسا بن مسّي نسن!

حدجه الرجل بدهشة قبل أن يتمتم:

– هل أنت على يقين؟!

لم يجب «مسّي»، فأضاف صاحب الشرطة:

– لا أستطيع تسجيل هذا الاسم!

– لا تستطيع تسجيل هذا الاسم؟

تطلّع إليه الرجل بقلق قبل أن يقول:

– هذا ليس اسماً مُنزّلاً!

تبادلا نظرة مزمومة فاكتشفه «مسّي» لأوّل مرّة: سحنة لها تكوين فنطيسة فأر، رأس صغير مستطيل ينتصب فوق رقبة قصيرة، تغيب بين منكبين مثبّتين في بدنٍ هزيلٍ ملفوفٍ في قيافة رسمية متوّجة بنجمتين اثنتين شارة الرتبة.

تمتم الرجل:

– على رغم خطورة الشأن الذي جئت من أجله؛ فإنني مضطرّ إلى أن أطلب منك إبراز وثيقة الهويّة!

ابتسم «مسّي» بمرارة:

– لا وجود لوثيقة هويّة في جيبي!

تفحّصه الرجل بدهشة:

– نحن لا نعترف بمواطن لا يحمل في جيبه وثيقة هويّة!

– تشترطون إبراز الوثائق حتى لو تعلّق الأمر بالشأن الخطير الذي يتهدّد الوطن؟

– وما أدرانا أنّكم لا تستهزئون بنا بتقديم البلاغات الكاذبة؟

سكت ثمّ أضاف:

– ثلث سكّان هذه المدينة سلالة مجانين يروق لهم أن

يفعلوا هذا على سبيل التسلية كلّما حانت الفرصة!

– أن تسمع بلاغاً كاذباً من فم مجنون أهون من أن تخاطر بأمن الوطن لمجرّد غياب وثيقة الهويّة من جيب المواطن!

تردّد ضابط المناوبة. صفّف كتلة الورق الرسمي على المنضدة ليداري حيرته. ازدادت غيبة رقبته بين منكبيه. قال من دون أن يرفع رأسه:

– حسناً! فلنعقد صفقة!

استنكر «مسّي»:

– صفقة؟

– صفقة تروي لي بموجبها الشأن الذي تدّعي له الخطورة، مقابل أن تترك لي حقّ تقدير هذه الخطورة بعيداً عن تدوين محضر رسمي!

– فليكن!

استرخى الرجل في مقعده. كان سعيداً بالعودة إلى رحاب خموله. تكلّم «مسّي»:

– في الأيّام الماضية حدثت سرقة!

استنكر ضابط المناوبة من دون أن يتنازل عن خموله:

– سرقة؟

– سرقة خطيرة!

– وما علاقة السرقة بالشأن الذي يتهدّد أمن الوطن بتعبيرك؟

– أليس من اختصاصكم حماية كنوز هذه البلاد؟

أطلق الرجل ضحكة عالية فغاب في جوف الكرسي حتى كاد يختفي بسبب ضآلته. قال:

– ألا تدري أن الجُرم الوحيد المباح شرعاً في هذه الأنحاء هو السرقة؟!

– ولكن ثمّة سرقة تختلف عن سرقة!

– ألم تتحدّث عن سرقة كنوز الوطن؟

– بلى!

– اعلم إذاً أن سرقة هذه الكنوز هي السرقة الوحيدة التي لا يُعاقب عليها القانون!

تطلّع إليه «مسّي» بذهول. فقد صوابه:

– يأتي الأغراب بعون ضعاف النفوس ليستولوا على روح الصحراء الخبيئة في حجر الأسلاف، ليقوموا بتهريب هذا الكنز إلى ما وراء البحار، ثمّ تحاول أن تقنعني بشرعيّة هذه الجريمة؟

اعتدل المناوب في جلسته. لوّح بيده:

– مهلاً! مهلاً! هل تتحدّث عن سرقة حجر؟

– أتحدّث عن سرقة حجر الأسلاف المقدّس!

تطلعَ إليه رجل الأمن بارتياب من يشكّ في قوى جليسه العقليّة. تمتم:

– ها أنت تحدّثني بلسان الجنون!

– لسان الجنون؟

– من يتحدّث عن سرقات الحجارة هذه الأيّام؟ نحن نتحدّث عن سرقة الكنوز الحقيقية. إذا كانت سرقة الكنوز الحقيقيّة مشروعة بحكم العرف الشائع، أفلا تبدو سرقات الحجارة الصحراويّة سخريةً، إذا قورنت بسرقات الكنوز الحقيقيّة؟ ألا تدري أن هذا المخفر يتلقّى في اليوم الواحد ما لا يقلّ عن عشرة بلاغات سرقة لحجارة نفيسة من أحجار مدن الآثار من دون أن يُتَّخَذَ أدنى إجراء لاستردادها أو لملاحقة مختلسيها؟

لاحظ سيماء الشحوب في وجه الجليس فقرر أن يُهوِّن عليه:

– أردت أن أقول إن مثل هذه السرقات لم تعد منذ زمن بعيد ضمن المخالفات القانونيّة التي تستدعي استخدام تعبير «الشأن الخطير»؛ لأن السلطات المعنيّة لم تعد ترى فيها استنزافاً لكنوز الوطن التاريخيّة، بل تحريراً للأرض من رجس الوثن!

– رجس الوثن؟

هَبَّ الرجل من مقعده خلف المنضدة فتبدّى أقصر قامةً على نحوٍ محزنٍ. خطا في أرض المكان عاقداً يديه وراء ظهره ليقول:

– يخيّل لي أن أمثالك من المواطنين مخلوقات هبطت من كوكب آخر، لأن حُمّى المنفعة التي استحوذت على الخلق في هذه المدينة لتحيل كلّ شيء في رحابها السخيّة إلى غنيمة، هي داء له جذور. لقد كانت نهباً للغزاة واللقطاء على مرّ الأزمان، وعلى رغم ذلك فإن معينها لا ينضب!

– ألاّ ينضب معينها فذاك درس في السخاء تلقّنه للبلهاء، ولكنّه لا يجب أن يكون مبرّراً للتشريع الذي يبيح الاستمرار في نهبها.

ساد صمت. قال رئيس المخفر:

– استولى أحد الأشقياء مرة على آثار أسلافها ليهدي لحلفائه الدخلاء ما شاء له أن يهدي، ثمّ باع لطلاّب الكنوز ما شاء له أن يبيع، ثمّ هَدّم ما شاء له أن يهدّم، وأغرق في بحرها ما شاء له أن يُغرق، فهل حقّق حلمه المريض بقطع دابر ماضيها؟ كلاّ بالطبع. كشفت الأرض الطيّبة عن كنوزٍ أعظمَ شأناً من كلّ الكنوز التي فقدتها على أيدي الدخلاء في كلّ

تاريخها، كأنّها تتحدّى جلاّديها!

قال «مسّي» بحزن:

– لا يجب أن نراهن على صبرها أو على سخائها إلى الأبد، لأنّ الصبر الطويل هو الرسالة التي تنذر بالقصاص الجسيم!

تطلّع إليه صاحب المخفر طويلاً. لوّح بيده علامة العجز قبل أن يعبّر عن يأسه:

– يؤسفني ألاّ أستطيع تحرير المحضر لسبب بسيط؛ وهو أنّي لا أستطيع أن أقنع رؤسائي بجدوى هذا العمل، إذا كانوا يرون قيمة الحبر وثمن الورق الرسمي، أنفسَ بما لا يقاس من قيمة الحجر الذي تسميه أنت تحفة أثريّة!

ترنّح «مسّي» بسبب وهن إنسان لم ينم منذ أيّام. ولكنّه عاند ليستعيد حضوره:

– لم أكن لأقيم الدنيا بسبب سرقة حجر لولا إيماني بأن ذلك الحجر لم يكن مجردّ حجر، ولكنّه وصيّة!

– وصيّة؟

استمات «مسّي» بحثاً عن عبارة الصواب قبل أن يعلن:

– الحجر الذي يحمل بصمة الأسلاف ليس كنز الدنيا، ولكنّه وصيّة روح!

– أفهم أن يكون الحجر الذي تتحدّث عنه وصيّة روح، ولكن

كيف السبيل إلى إقناع أبناء هذا الزمان بهذه الحُجّة؟

– ظننت أنّ الحيلة إذا أعجزت سلطان العُرْف، فلا يجب أن تُعْجِز الحيلة سلطان القانون الذي يملك الحقّ في أن يضرب بيدٍ من حديدٍ.

ابتسم رئيس المخفر بمرارة. توقّف عن سعيه. قال:

– يدهشني وجود المخلوق الذي يعوّل على سلطان القوانين!

غاب رأسه بين منكبيه فتبدّى أَحْدبَ قبل أن يضيف:

– يجب أن نعوِّل على سلطان الضمير، لا على سلطان القوانين.

– الضمير فارس حقّاً، ولكنّ البليّة أنه فارس أعزل!

– قد يفلح فارس الضمير وهو أعزل، ما يفشل في عمله سلطان القوانين وهو مُدجّج بألف سلاح!

انتصب بينهما صمت. أمام بصر «مسّي» مَرَقَتْ أشباح.



34

في اليوم الذي باع فيه «مسّي» البيت جاء لزيارته نزيه الفاضل.

قال إنه جاء لزيارته بالأمس فأفاده الجار العجوز بنيّته في الهجرة، فقال «مسّي» وهو يواجه ضيفه في دار الجلوس:

– لم تترك لي الأقدار خياراً!

شكّك نزيه:

– ألا تبدو عزلة الصحراء بعبعاً لإنسان سلّم زمام أمره للشيخوخة؟

– لا يستمرئ الإنسان عزلة الصحراء إلاّ في زمن الشيخوخة، لأنها شبح لا يفزعنا إلاّ في مرحلة الطيش!

– ولكن ألا ترى أن الناسك نفسه في حاجة أحياناً إلى تسلية؟

– لا أنكر أن التسلية جرثومة تسري في دم المخلوق حتّى لو كان مريد عزلة، ولكن للصحراء القدرة على تجريدنا حتّى من هذه العلّة عندما تميت فينا الجسد لتحيي الروح.

– لا أتخيّل أن يحيا الإنسان بلا فعل!

– بالصحراء نستبدل بفعل اليد فعلَ القلب!

ولكنّ الشكّ لم ينطفئ في عين نزيه، فأضاف «مسّي»:

– إذا كان فعل البدن ضرورة فهناك الإبل!

– هل ستشتري إبلاً؟

– بالطبع. ألم تقل مرّة إن الإنسان لا بدّ أن يطارد شيئاً؟

ابتسم نزيه، فأضاف «مسّي»:

– إذا كانت المطاردة شرط الحياة في المدن، فكيف لا تكون شرطاً في عزلة الصحراء؟

ابتسم نزيه لأنه أدرك أن «مسّي» تنازل عن يقينه بشأن العزلة ليرضيه بالاحتكام إلى ساحة الطريدة التي حدّثه بها في أثناء جولاتهما في وادي الأسلاف، فقرر أن يكافئه أيضاً:

– يقال إنه ليس على الإنسان أن يخاف أبداً من أن يبدأ الحياة من جديد!

تطلّع إليه «مسّي» مليّاً:

– جدب الصحراء لا يخيفني كما يخيف الكثيرين، لأنه لم يحدث في تاريخ الصحراء أن نجت من الفناء إلاّ القبيلة التي استجارت بالصحراء، في حين هلكت كلّ القبائل التي استجارت بالمدن، أو الواحات، أو الهجرة إلى بلدان الجوار!

بعدها ساد صمت تبادل فيه الصديقان اختلاس النظرات خفيةً إلى أن تساءل نزيه:

– ماذا بشأن الابن؟

طأطأ «مسّي». شبك يديه على صدره. أسند مرفقيه إلى ركبتيه كأنّه في انحناءته يريد أن يخفي عينيه. تمتم أخيراً:

– سوف يرافقني بالطبع!

خُيِّل لنزيه أن رعشة انتابت صوت جليسه عندما نطق بالعبارة. سأل:

– هل ستزور المدينة؟

ابتسم «مسّي» بسخرية. همس:

– أنت مَنْ يجب أن يزورني ليرى ما إذا كنت قد أفلحت في صنع اسمي الجديد في وطني الجديد!

انتصب الصمت. قال نزيه:

– هل بلغك نبأ «الباي» المزعوم؟

استفهم «مسّي» بسيماء اللهفة فأضاف نزيه:

– لقد فرّ!

– فرّ؟

– اتضح أن توكيل شركة النفط كان وثيقة مزوّرة، وشركة التنقيب نفسها لم تكن سوى لافتة لسرقة الآثار!

35

قبض «مسّي» ثمن البيت فذهب لزيارة جاره العجوز في الحانوت المجاور. لم يجد العجوز في الحانوت، ولكنّه فوجئ بوجود الحفيد. الحفيد نفسه الذي أعلن التوبة وقاده إلى وكر المحفل الذي استجار به «يوجرتن» . سأله عن الجدّ فقال إنه خرج إلى مركز المدينة لقضاء بعض الحوائج ولن يعود قبل المساء. سأله عن «يوجرتن» فطأطأ الماكر قبل أن ينفي علمه بأمر «يوجرتن». ولكنّ «مسّي» لم يصدقه. أخرج من جيبه المظروف الذي دسّ فيه مبلغاً سخيّاً من المال. قدّمه لحفيد العجوز قائلاً:

– هذه أمانة عليك تسليمها لجدك مع وصيّة تقول إني لا أريد أن أتحرّر من دينه بدفع المال، لأنّ معروفه هو الدَّين الذي سآخذه معي إلى القبر لأحدّث به ربّي!

أنصت الفتى بدهشة، فأضاف «مسّي» بمسلك طفولي:

– أريدك أن تعيد ما سمعته منّي حرفيّاً!

أعاد الفتى الوصيّة حرفيّاً، ولكنّ «مسّي» لم ينصرف. تلكّأ أمام الحانوت قليلاً قبل أن يستدير فجأة ليخاطب حفيد العجوز مرّة أخرى:

– لا أصدّق ما قلته لي منذ قليل عن أمر «يوجرتن»!

طأطأ الفتى، فأضاف «مسّي»:

– ربّما لا أملك الحقّ في التشكيك بحقيقة توبتك، ولكن ما أعلمه أن مثل هذه المحافل تدمن أولئك الذين شربوا من جدولها، فلا تتوب عنهم مهما تابوا عنها، ولا تتخلّى عنهم إلاّ أمواتاً، لأنّها عندما تهلك لا بد أن تهلكهم معها!

ابتسم الفتى بمكر فأضاف «مسّي»:

– دعنا نحتكم إلى شرع المدن فننجز صفقة!

– صفقة؟

– ستحدّثني عن أمر «يوجرتن»، أو «جريء» كما تسمّونه في محفلكم، مقابل ألا أشي بك إلى الجدّ!

عاد الولد يبتسم بخبث ممزوج بشقاوة هذه المرّة. قال:

– جريء على علمٍ بكلّ شيء!

– بكلّ شيء؟

– أعني أنّه يعلم أنّك تعلم!

حدج «مسّي» بنظرة ذات معنى، فسأل «مسّي»:

– يعلم أني أعلم ماذا؟

سكت الفتى في اللحظة التي دخل فيها أحد الزبائن لابتياع علبة تبغ. فرغ من الزبون ليستنزل على وجهه قناعَ بسمته الماكرة:

– يعلم أنّك تعلم أمر الصفقة!

– الصفقة؟

– صفقة الحجر!

حدّق «مسّي» في مقلة الفتى لحظات. سأل:

– وماذا ينوي أن يفعل؟

– لا شيء!

– ألا يخشى قصاصي؟

استخفّ الفتى بالسؤال:

– جريء لا يخشى شيئاً!

– كلّنا نخشى شيئاً!

– يروق لجريء أن يردّد قائلاً إن من فقد كلّ شيء ليس عليه أن يخاف أيّ شيء!

سأل «مسّي» بعد لحظة صمت:

– ألا يخشى فشل مكيدته ضد السّجلّ المدني مثلاً؟

استند الفتى بمرفقيه إلى الحاجز الخشبي الذي لا يعرف «مسّي» لماذا ذكّره في تلك اللحظة بحاجز السّجلّ المدني. أجاب الفتى:

– جريء لا يخشى حتى فشل مكيدته ضد السّجلّ المدني!

– من أين له بهذه الثقة بالنفس؟

تأمّله الفتى ملياً. تأمّله بجرأة أقرب إلى الوقاحة. قال بيقين:

– استعار ثقته بنفسه منك!

استنكر «مسّي»:

– منّي؟

أجاب الفتى بهدوء:

– قال إنه على يقين من أنّك لن تَشِيَ به!

سكت «مسّي». تمتم:

– ولكن لم أَعِدْه بشيء!

– جريء ليس في حاجة إلى وعد!

– لا يقين بلا وعد!

– يقين جريء ليس مستعاراً من الوعد، ولكنّه مستعار منك.

– ماذا تعني؟

– جريء يقول إنّه يعرفك على رغم أنّك لا تعرفه!

ابتسم «مسّي» بحزن قبل أن يومئ للفتى مودّعاً.

36

اجتـاز «مسّـي» فسـحـة الحقـول قبيل المغيب. كـان قـرص الشمس هـائل الحجم، قـاني اللّون، كأنّه انتفخ اليوم ليزيد حجمه أضعافاً.

على تربة الحقول الشاحبة، المستباحة بأنياب الجرّارات الوحشيّة، نبتت تلك الأعشاب العقيمة التي استوردها سادة المدينـة من الخارج خصيصـاً لـتكون بديلاً لتلك الأشجار السخيّـة الـتي كـان لـها الفضل يومـاً في إنقـاذ آبـائـهم من المجاعات، كـالـنخيل والـزيتون والـرّمّـان والـتين، فـاجتثّتها الأيدي الآثمة بلا رحمة لا لشيء إلاّ لأن نزيف الأرض الشقيّة المسمّى في لغة القوم نفطاً، أشبعهم من جوع وآمنهم من خوف، فظنّوا أن هذا النزيف الذي حقّق لهم الرخاء يمكن أن يستمرّ إلى الأبد، فما كان منهم إلاّ أن قطعوا دابر أنبل الأشجار ليستزرعوا مكانها بُسُط الأعشاب الضـارّة لا ليفيدوا من بهاء مرآهـا، ولكن ليتباهوا أمام بعضهم بعضـاً بلونها الأخضر؛ فما أشبهَ هؤلاء الأشقياء بأحمق الصحراء الذي أبصر سراباً فخاله بحيرة ماء، فاستصغر ماء قِرْبته أمام سخاء بحيرة الوهم، فما كان منه إلاّ أن دلقه أرضاً ليهلك بعدها ظمأً!

أدرك باب الحديد الكئيب وهو يتحسّر على الأرض التي

كانت إلى وقت قريب مغمورة لا بأشجار الفاكهة فحسب، ولكن بالنباتات البريّة التي كانت يوماً أيضاً ثروة الوطن كالحلفاء، والفصيص الذي أطعم الأسلاف أشهى ثمار الدنيا التي مازالت الأجيال تروي عن لذّتها الأساطير المتمثلة في الكمأ. وها هي رقع الأرض التي نجت من غزوات الجرّارات الكريهة، تُسْتباح أيضاً بالأسمنت والحديد وصلد المقابر المسمّى في معجم القوم عمراناً!

لا يدري كم مكث أمام البوّابة القبيحة قبل أن يخرج للقائه الابن.

انتصب أمامه صامتاً. لم تدم المواجهة طويلاً. انطلقا في الدرب المؤدي إلى الحقول العارية كأنّهما كانا على اتفاق مسبق. كأنّهما كانا على موعد. بل كأنّ زيارته له في ذلك اليوم كانت تلبيةً لموعد. كأنّها كانت استجابةً لنداء.

ركع القرص المهيب في البُعْد البعيد ليفيض على الحقول وقمم بقايا الأشجار بشعاع مسربل بالدّم.

سارا عبر الحقول الميّتة صامتَين. سارا متجاورَين صامتين كأنّهما في حلم. كأنّهما يؤدّيان طقساً مرسوماً بعهدٍ قديمٍ قِدَم الإنسان. كأن صمتهما إدانة لدنس اللسان. كأنّ صمتهما إكبار لبكارة السكون. كأنّ صمتهما إعادة اعتبار

لقداسة الصمت مقابل خطيئة اللسان.

قَطَعا خطوات أخرى فانحنى القرص القاني، المهيب، مسافة أخرى. في تلك اللحظة فقط وقع بصر الأب على شجرة الرّتم. شجرة وحيدة، معزولة، منقطعة عن الأشجار، مغتربة عن هويّتها الصحراوية الخالدة. منقطعة عن وطنها الشقيّ الذي كُتب عليه أن يتلقّى اللعنات من ألسنة كلّ مستلبٍ دعيّ، كأنّ سبّ الوطن هو شهادة البراءة التي لا يستطيع من دونها السفلة أن ينالوا إكبار الأغيار!

استغرب أن تنجو شجرة الرّتم من أنياب جرّارات القوم الوحشيّة طوال هذا الأمد. وإذا كانت قد نجت فلا بد أن القدر أعماهم عنها. وإذا كان القدر قد أعماهم عن شجرة الرّتم، فلن يعني هذا سوى رسالة. رسالة موجهة إليه هو كسليل صحراء وحيدٍ يعرف حقيقة الرّتم المقدّس الذي تقول وصايا الأسلاف إنّه ملجأ روح الصحراء الوحيد الذي اختاره هذا الوطن الشقيّ لكي يستجير به كلّما حاقت به بليّة. ولكنّ روح الصحراء لا تخرج من مخبئها في شجرة الرّتم لتعود إلى صحرائها إلاّ بقربانٍ جسيم!

بلى! الصحراء لا تستعيد روحها الضائعة المستجيرة بشجرة الرّتم إلاّ بقربانٍ جسيم، حسب وصيّة الناموس



المفقود «آنهي».

هَوَى قرص العجب في بُعْد الغرب مسافة أخرى. لامس قوس الأفق المزموم في البُعْد البعيد ليبدأ رحلة الغرق. ليبدأ رحلة اغترابه في غموض المجهول. ليستنزل في قلب الغريب الوحي. توقّف الغريب بحذاء شجرة القداسة دون أن يكفّ عن ملاحقة قرص العجب ببصره. توقّف الغريب فتوقّف سليل الغريب أيضاً. توقّف السليل في تلك اللحظة أيضاً، كأنّه كان مع الأب على اتفاق مسبق. توقّف كأنّه يستجيب أيضاً لنداء. كأنّه يلبّي أيضاً رسالة الوحي!

استلّ صاحب الاغتراب نصل المُدْيَة المثبّت في ذراعه في اللحظة التي بدأ فيها الإلَهُ المسربل بالدّم يتوارى تلبيةً لنداء ناموسه الخالد. لَوّح الأب بالمُدْيَة في الفراغ؛ فاغتسل النَّصل النّهِم بشعاع الدّم قبل أن يستقرّ في النّحر!

استقرّ النصل المغسول بروح الإله الأبديّ في نحر السليل فخرَّ الابن أرضاً. انبثق الدم غزيراً من النحر ليسيل عبر الحضيض. تسلّل عبر الأرض الظمأى ليروي شجرة الرّتم، فحشرجت الضحيّة:

– كأني أُضْحية العيد!

في البُعْد البعيد، لفظ معبود الأسلاف السماوي أنفاسه

الأخيرة أيضاً؛ ليسلّط على النّصل المخضّب بالدّم شعاعاً مخضّباً بالدّم أيضاً، كأنّ الشعاع كان تلويحاً بتحيّة وداع!

سالو (إسبانيا) - غولديفيل (الريف السويسري)

٣ سبتمبر ٢٠٠٨م

مؤلفات إبراهيم الكوني

1- الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2-جرعة من دم (قصص) 1983م.

3- شجرة الرتم (قصص) 1986م.

- رباعية الخسوف 1989م.

4- البئر (رواية).

5- الواحة (رواية).

6- أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7- نداء الوقواق (رواية).

8- التبر (رواية) 1990م.

9- نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10- القفص (قصص) 1990م.

11- المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12- المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13- ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14– وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15– الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16– خريف الدرويش (رواية – قصص – أساطير) 1994م.

17– الفم (رواية)1994م.

18– السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19– السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20– فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21– برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22– واو الصغرى (رواية) 1997م.

23– عشب الليل (رواية) 1997م.

24– الدمية (رواية) 1998م.

25– صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26– الفزاعة (رواية) 1998م.

27– الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28– في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29– سأسِرُ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30– أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31– سأسِرُ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني،

البلبال، 1999م.

32- سأسِرُ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث ، برق الخُلَّب، 1999م.

33- وصايا الزمان 1999م.

34- نصوص الخلق 1999م.

35- ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م

36- الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37- نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38- أبيات (نصوص) 2000م.

39- بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40- رسالة الروح.

41- بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء1 أوطان الأرباب 2001م.

42- بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43- بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44- بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45- بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46- منازل الحقيقة 2003م.

47- أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48- لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49- البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50- أنوبيس (رواية) 2002م.

51- الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52- مراثي أوليس (رواية 2004م)

53- صحف إبراهيم (متون 2005م).

54- المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55- ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6, 2005م.

56- ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57- لون اللعنة (رواية) 2005م.

58- هكذا تأمَّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59- ملحمة المفاهيم ج3, (موسوعة البيان) ج7, (2006م).

60- نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61- في مكانٍ نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62- يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63- قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64- الوَرَم (رواية) 2007م.

65- يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66- من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

67- نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

68- ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

69- ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

اللوحة : لفناني ماقبل التاريخ
الألفية السابعة ق.م
الصحراء الليبية- منطقة تاسيلي
تصميم : مريم السالك

عطاء أستاذنا الكبير إبراهيم الكوني يفوق عطاء أي روائي عربي آخر. ورؤيته للتجديد في الفكر العربي مرتبطة بخلق جو فلسفيٍّ للعمل الإبداعي لا تقتصر فيه الرواية على أن تكون عبارة عن شخصيات وأحداث متداخلة. بل ...
الأحداث ثمّةَ ف... بالقارئ إلى أعم... والأحداث، محدث... بألاّ يتوقف عن... يتم الرواية عن آ...



سيف المري



20 يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع